يوميات امرأة مشعة

رواية

بألم
نعمات البحيرى

اهـــداء

إلى كل الذين امتدت أياديهم البيضاء لنجدتى من بين مخالب الوحش.....ليته لا يعود..
أحبائى وأصدقائى رفقاء الحلم والهم الواحد

نعمات البحيري

لكافكا مقولة شهيرة لا أنساها :

« ينبغي عدم السخرية من البطل وهو يترنح على خشبة المسرح بعد أن أصيب بجرح قاتل. إننا نمضي سنوات من حياتنا ونحن نرقص من الألم».

ولمحمود درويش كلمة..

في كل كتابة ابداعية نصر صغير على الموت، وهزيمة صغرى أمام إغواء الحياة التي تقول للشاعر: هذا لا يكفي، فما زالت القصيدة ناقصة! ..مثل هذا المحارب لا تليق به السكينة.

مفتتح ....

يحدث دائما أن يمرض الانسان وتتعدد الاسباب ربما للفقر أو للقهر أو لـ "شغل" الجينات وعوامل الوراثة فى جسده دون أجساد الآخرين حاملين نفس الجين، وربما لمجمل الضغوط النفسية التى تمارس عليه وخاصة حين يكون كاتبا تتراوح أمامه الحياة بين ما هو كائن وما يجب أن يكون بين كبت وحرية وفقر ورغد وديكتاتورية وديمقراطية...وبالأخص حين تكون كاتبة، امرأة فى مجتمع يتراجع عنه نوافذ وأبواب العقل فتنسحب الشمس وكذلك القمر وكل منجزات سنوات المد الثورى والتغيير والتطوير، تعيش سمات مجتمع يتراجع عن كل منجزه الحضارى لحساب حفنة أوهام. لكن الثابت دائما أن الشروط الانسانية التى تتوافر لبشر فيعيشون أصحاء هى نفسها التى تنعدم أو ترتبك أو تضطرب فيقع آخرون تحت وطأة المرض.

فى محاولة منى لتجاوز الأزمة كان يجب أن أخرج إلى منطقة أقل تورطا مع المرض. ساعدنى ذلك على النظر بحياد هادئ الى الصورة كاملة..أن تقف خارج المشهد وتتأمل جيدا يعنى أنك لا تنظر فقط بعيون سائح ولكن بعيون إنسان وأحيانا بعيون فيلسوف.

هذا ما حدث معى وأنا أتحرك فى ردهات مركز الأورام بمعهد ناصر لأتذكر مسرحية "كاليجولا" لألبير كامى والإمبراطور الرومانى الذى يندفع محاولا أن ينقذ البشرية من شرورها ومن مصيرها. ثم تموت أخته التي كان يحبها حبا غير عادى، فينتبه فجأة إلى أن البشر يموتون وهم غير سعداء ولأسباب تافهة للغاية. هذا ما رأيته تحديدا مع مراعاة الفروق بين العيون الرومانية والعيون المصرية..حين داهمنى الحدث بترسانته المرعبة، ناهيك عما ترسخ فى الوعى الشعبى والموروث عن المرض وتداعياته ودرجات وحشيته والنتائج المحتملة والنهايات المحتومة.

كان يجب أن أفتعل مهارة ممثل عبقرى، بخروجه الاضطرارى من شخصيته ليتقمص شخصية أخرى.. بالتأكيد كان تدخل صديقاتى وأصدقائى منذ اللحظات الأولى هو الذى قلب المسألة من حالة الذعر والكدر والحزن الشديد إلى كل هذا مع درجة لا بأس بها من الأمان والونسة والحياد والبساطة وليس التبسيط، كانت أحيانا تصل لبث النكتة ومشاعر المرح والطمأنينة فى الآخرين، ربما لأننى سمعت جيدا لكلمات أحد الأصدقاء وهو يؤكد لى أن ٦٠% من العلاج هو الحالة المعنوية. هى التى تقوى الجهاز المناعى وتمنحه قدرة هائلة على المقاومة، وكان الطريق للمقاومة بالابداع..

أمـــى...

سأثبت لها الليلة أننى كنت أنام ملء جفونى طوال العشرين عاما الماضية، على الرغم من أنها تعلم علم اليقين أن المرتبة الأولى قصيرة والمرتبة الثانية أقصر والفارق بينهما وبين الجدار ملأته بالخيال.

حدث هذا حين اشتريت لنفسى سريرا يقترب من الأرض لتفادى الوقوع من الأحلام، ولم يكن معى ما يكفى لشراء مرتبة باتساع السرير فأعارتنى أمى مرتبة قطن تصلح لسرير صغير، وأعارتنى ابنة خالتى مرتبة أخرى لسرير أصغر والفارق بين المرتبتين والجدار ملأته بكتب مملة ورتيبة للكتاب الرسميين فى العالم كله..كانت تأتينى هدايا من السفارات والملحقات والمراكز الثقافية وكذلك سددت الفارق بين المرتبتين والجدار بقرارات

الجزاءات والحرمان وقرارات النقل من جراء التمرد على مستنقع الوظيفة المملة وكذلك قرارات الفصل والأجازات بدون أجر للولادة أو للسفر إلى بلاد النفط والذين خرجوا على المعاش أومن آصيبوا بعاهات والذين ماتوا أو فقدوا أو جنوا أو اكتأبوا أثناء الوظيفة. ملأتها أيضا برزم التذاكر الطبية للموظفين والموظفات خلال غزو أمراض مثل السكر والضغط والسرطان وأمراض الكبد والفشل الكلوى وغيرها انتشرت بشكل مبالغ فيه فى الفترة الأخيرة...

كم الاشعات الذى تعاطيته حتى الآن يجعلنى امرأة مشعة تماما.. وللآن لا أدرى مقدار الخطورة التى قد أصيب بها الآخرين..

ترى هل كان النوم يأتينى حقا، أم أنه شخير أمى فى الغرفة المجاورة، .. لذا قررت الانتقام منها ـ حبا ـ فى كتابة رواية عن الربع الناقص بين المرتبتين والجدار الذى ملأته بحكايات فى حضرة سيدنا الألم مع أصدقائى وأحبائى وزملائى وكل الذين عرفتهم تحت ضوء خاص يوم زلزال أكتوبر٢٠٠٤ ، ربما يمكننى أن أنام وأحلم جيدا وأتفادى الوقوع من الأحلام مرة ثانية...

تدخل فنى......

بدت هالة البدرى منزعجة لما تدركه من نظرات الجراح الذى راح يفتش فى ملامحهما هى وسهام بيومى عن جملة مناسبة يفصح بها عن حقيقة الموقف بأدنى خسارة .. هكذا أدركت كنه المسألة بحواس خفية غامضة هى دائما بوصلتى الصادقة الصدوق ناحية الأشياء والمواقف والبشر وأنا أتذكر قول "برنارد شو" عن الجراحين "أنهم ....جزارون مهذبون"..

أخذت هالة وسهام الطبيب على جانب.. وسرى فى نفسى نزوع غريب مثل صقر يحافظ على حقه فى الطيران ولو للدقائق الأخيرة من عمره.

انقضضت على الجراح بأسئلة بعد أن أفصحت له أننى امرأة مؤمنة وأؤمن جيدا بالقدر، فضلا عن أن لى محاولات غير بائسة فى كتابة الدراما وأفهم على نحو ما دراما الحياة..

نظرالجراح لهالة وسهام ثم لى وقد بدا أنه وقع بين مخالب قطة شرسة فراح يتحدث بشروط السوق ولغته السائدة:

ـ من الآخر ؟..

ـ من الآخر ..

نظر طويلا ثم قال كل شيء.

أخبرنى أنه سوف يضخم من حجم المسألة ليحمس المسئولين فى عملى على الاسراع لتقديم تسهيلات سريعة بغية إجراء تحاليل وفحوصات لازمة.. أعرف انه لم يضخم من الكارثة وأن حجمها الكامن يفصح عن نفسه.. أدرك أن ما كتبه الجراح على الورق هو الحقيقة غير زائدة..

خفضت كل من هالة البدرى وسهام بيومى رأسيهما وصمتتا فقلت لهما

ـ هيا نبدأ الرحلة فلست خائفة..

لم يكن هذا صحيحا على الاطلاق ..

كتب الطبيب قائمة طويلة استوعبت ورقتين من دفتره الهزيل ..تحاليل وآشعات كان لابد أن تمر بدرجات متفاوتة من بيروقراطية الجهاز الادارى الذى التصق مثل السرطان بكل المستشفيات والمؤسسات العلاجية.

المستشفى صرح فخيم عظيم يذكرك بالمولات الكبيرة التى انتشرت هذه الأيام.. متاهة كبيرة تشبه بيت جحا لكن بشروط العصر، الأبنية أشبه بتصميمات المركبات الفضائية،أتنقل فى طرقاتها وممراتها وتساندنى هالة البدرى وسهام بيومى، لجمع كم هائل من التوقيعات على استمارات التحاليل والآشعات قبل بداية الرحلة الصعبة.

ثـم بـدأت الرحلـة ربمـا الأصـعب مـن الجراحـة ذاتهـا بتحليل الدم بكل أنواعه.. صورة دم كاملة ..وظائف كلـى .. وظائف كبد وآشعات على الصدر والـبطن والحـوض ومسـح ذرى على العظام خشية أن يكون المرض قد أرسـل بعـض رسائله الحميمة هنا أو هناك. كذلك رسم القلب وموجـات صوتية وفوق صـوتية والـرنين المغناطيسـى علـى الجسـد كله..

بـدوت لنفسـى وكـأننى فـى حالـة تأهيـل جسـدى ونفسـى لامتطاء مركبة فضائية .

بعض الآشـعات أشـبه بـآلات التعـذيب فـى معسـكرات النازيـة، يـدرك المـريض أنهـا فقـط مـن أجـل تـدمير جهـازه السمعى والعصبى. كنت أدرك على نحو وآخر أن ثمة قوى غبية ترغب فى تدمير كائن رقيق.. مرهف الحس.. فلـيس هذا زمن الحساسين..

ومع مرارة الرحلـة التـى بـدت كمسـيرة مـتهم أخـذوه "كعب دائر".. يلفون به على جهات أمنية عديدة للتأكد من أنه لـيس مطلوبـا علـى ذمـة قضايا أخـرى، كـان لابـد مـن التأكد من براءة بقية أعضاء جسمى مـن نفـس المـرض أو أية أمراض أخرى.

فـى حجـرة واسـعة وبـاردة للغايـة، بـدا انتظـار الـدور المقدس الذى سيحسم البراءة من الإدانة، أحد الضروريات التى أرست قواعدها المستشفى الضخم. فلـيس هنـاك فروقا طبقية أو اجتماعية أو ثقافيـة بـين المرضـى. أو ربمـا هذا ما يبدو على السطح ..يحـدد الـدور بأسـبقية الحضـور ولا يمكن تجاوز المسألة تحت وهم الاحساس بأننى كاتبة أو أننى أعد سلفا من النخبة..

ابتسمت وطفر سؤال خبيث بمثـل خبـث الـورم ..مـن يجزم أنه حتى داخل النخبة والصفوة ليست هناك طبقات.

كما أن ديمقراطية المرض وهم كبير. كل أنواع المرض تنحاز للأغنياء فتتجنبهم وتتحاشاهم.

تعاملت هالة البدرى مع المسألة بإنسانية شديدة وأنا مستلقية بعينين غائمتى الرؤية فى قاعة الانتظار، والتليفزيون حليف متواطئ مع كل أشكال القرف. تنبهت إلى وجه جميل يشبه على نحو ما وجه أمى التى أخفيت عنها المسألة برمتها، خوفا عليها من فزع لا تستطيع إزاءه إلا الانهيار، يدعمه ما ترسب فى الوعى الشعبى عن هذا المرض تحديدا. مازال هناك من يدعوه بالخبيث وهناك من يقول "المرض الوحش"، أو "اللى ما يتسماش" وكأن مجرد ذكر اسمه يستعدى ـ حتما ـ شراسته.

كانت المرأة ترافق ابنتها الجميلة بنت السابعة عشرة والتى داهمتها سيارة ونتج عنها كيس ماء فوق الظهر.. أتت لعمل اشعة رنين مغناطيسى. الأم فلاحة مصرية تشم فى ثيابها رائحة طين الأرض، وبقايا ماجور العجين وعشة دجاج فوق سطح الدار المسقف بأقراص "الجلة" اليابسة.

جاءت تشكو لهالة البدرى بصوت متهشم..

ـ تتصورى يا بنتى الشاى بجنيه .. الله لا يكسبهم ولا يربحهم..

هالة الدافئة جدا أعطت المرأة نقودا، فتمنعت لكنها سرعان ما ذابت فى حنان هالة ..

سألتنى وأنا ما زلت أستجدى قدرا من الراحة على مقعدين متلاصقين،وكنا من طلعة النهار نمر على الأقسام لندمغ الأوراق ونأخذ أسعار كل تحليل أو اشعة لتضمن المستشفى أن ثمة غطاءً ماديا لكل هذا.

ـ تشربى شاى؟

ـ يا ريت..

منحت هالة المرأة جنيهين آخرين ..

بلعت المرأة ريقها ونظرت إلىّ بحنان بالغ وقالت..

ـ.. انشاء الله سليمة.

لا أدرى ما الذى جعلنى أتشبث بكلمات ونظرات المرأة ..سارت خطوات وغابت ثم جاءت ترثى لعاملة البوفية الباكية والرهيفة مثل قلب الخسة والتى خصم لها صاحب البوفيه ثلاثين جنيها، سيعدها عجزا فى نهاية اليوم....

ـ يا حبة عين أمها .. بت زى البدر .. اللى يدهولها باليمين ياخده بالشمال..

رفضت هالة أن تستعيد النقود، فجاءت لى بالجنيهات الأربع فى يدها.. طمأنتها عيناى فى حلة تسول ابتسامة أمى الغائبة الحاضرة فى عيون وصوت المرأة.

مللت الانتظار وعيونى ـ كلما راحت أو أتت ـ ترتطم بمريض فى أقصى درجات المرض أو أدناها، وبين الاثنتين مساحات متراوحة من الهزيمة والانسحاب والتراجع والوهن. شعرت بكثير من السأم والضجر فأخبرت هالة بأننى سأحضر شيئا من السيارة.

نزلت وسرت فى ردهات مركز الأورام متجاهلة أننى أنا "نعمات البحيرى" بلحمها ودمها، زاعمة لنفسى أننى شخص آخر خارج دائرة الورم والخبث، يرى الأطفال المرضى بوجوههم "المحمرة احمرارا مصفرا ، ورؤوسهم الخالية من الشعر من آثار العلاج الكيماوى.

كنت أراهم مثل كائنات قادمة من عالم آخر. حتى الممرضات جامدات الوجوه، قصيرات، صغيرات الحجم بعيون مصمتة . بدون لى مثل أورام صغيرة تسير على الأرض..

كنت أرغب فى تجاوزأشباح المرض فى زوايا وأركان المركز. على الأرض والمقاعد وفى الحدائق التى انتشرت فى شكل جمالى حول المركز.

بـدا الإسـفلت ينـزل ويصـعد وينحنـى وينحـدر ويطـول ويقصـر وسـاقاى علـى الأرض شـديدتا النحـول.. كنـت قـد ركنت سيارتى الصغيرة فـى "بـاركينج" المستشـفى منـذ الصباح الباكر.. سيارة صغيرة بيضـاء ، أسـميتها "فلـة بنـت خوخة اللى جت بعد دوخة" اشتريتها وأنا أنحت فى صخر عنيـد لتحسـين شـروط الحيـاة، فـى واقـع لا يقـل خبثـا وشراسة عن المرض. وما أن بدأت أجنى ثمار كدى وتعبى حتى فاجأنى المرض..

أحاول أن أمتص خبرة الألم من عيون المرضى وذويهـم وأطياف الخوف والفزع، رافضـة تسـول الشـفقة والتعـاطف، تلك التى تصلنى كمشـاعر مـن بلاسـتيك لا حـرارة فيهـا، يمارسـها الناس على بعضهم فى مثل هذه المواقـف مثـل جمـل اعتراضـية، تقـال علـى مضـض ثـم يواصـلون الحيـاة البليدة الجافـة..والأيام مثـل حبـات رمـاد، تفركهـا بأصـابعك لتطير فى أعقاب أزمة مثل هذه...

فتحـت السـيارة وجلسـت قلـيلا إلـى "فلـة" وحضـنت عجلة القيادة وقبلت التابلوه وقلت لها..

ـ خلى بالك منى يا فلة..

كان لسان حالها الصامت ..يقول

ـ.. أكيد حنعديها.. ياما عدينا أزمات مع بعض..

وكان لسان حالى يجزم لها بأننى لست امرأة ترى أن كل دورها فـى الحيـاة يختـزل فـى "قطعـة لحـم" يلتهمهـا الرجـل، حتـى أعيـد انتـاج الغضـب علـى أنوثـة منقوصـة لحسـاب واقـع غبـى وشـرس لـم يغفـر لـى أننـى امـرأة موهوبة حتى النخاع.

جـاءت شـوقية الكـردى وصـديقتها السـورية وجلسـنا على النجيل نتحدث فى السياسة والفن والأدب وضحكات شوقية تملأ سماء المستشفى.

ـ والله ح تبقى كويس يا جميل....

ابتسامات شوقية وكلماتها تحرك فى نفسى بقايا أمل. غير أمل صاحبتها التى بدت بيضاء ونحيلة ونظراتها محشوة بانكسارات ومكسرات عمرها وأحلامها..

كيس الجوافة الذى اشترته سهام بيومى أمس.نسيته فى السيارة . منحت البنت وأمها شيئا منه... وجهها الجميل وعيناها الصافيتان ترسم فى الأفق وجه أمى التى أشعر تجاهها بالذنب لأننى لم أخبرها حتى الآن..

دلتنى المرأة على الطريق.. بدا أن لها باعا طويلا مع الألم.. حكت لى الحكاية كاملة وهى تقول وكأنها تقدم اعتذارا..

ـ أصل أنا م الفلاحين ..

علمت أنها من قرية فى أعماق القناطر فضحكت وقلت لها..

ـ أنا من شبين القناطر.. من تل التمايمة....

ظلت تطيب خاطرى طول الوقت وتنتظرنى على كل باب وكأنها نسيت أن لها بنتا تدعى "أزهار" تنتظرها.. هى الأخرى تنتظر دورها مع الحضور الغفير أمام قسم آشعة الرنين المغناطيسى..

بدا المنتظرون يتابعون جهاز التليفزيون الذى بدا مثل آلة تخدير تسرق العيون والعقول والوقت والتركيز على الألم والمرض وتمنح الصبر والخدر وطول البال ..

بالصدفة المحضة كان اليوم الخامس من أكتوبر والتليفزيون يبث أفلاما وبرامج تتحدث عن النصر المبين ووجوه المسئولين يراوغون الألم والأمل فى عيون المرضى وذويهم وهم يتحدثون فى جرأة وثقة..

قلت لهالة البدرى..

ـ بحب مسئولين الحكومة.. دمهم زى الشربات.

يطالعون الناس فى مثل هذه المناسـبات بوجـوه ذات ملامح حادة وعيـون متقـدة بالكـذب، يتحـدثون عـن النصـر والأمـل بأصـوات جهـورة.. أو عــن أمجـاد غــابرة ويوهمـون الناس بأنها مازالت قائمة..

ابتسمت هالة وقالت ..

ـ انت مجرمة..

ابتسمت ومددت ساقىّ أريحهما من تعب اليوم واللف على أقسام التحليل والآشعات لابراء ذمة الجسد..

فجأة وبدون مقدمات سألتنى هالة..

ـ أخبار سليم إيه؟

ـ ولا أعرف أى اخبار من ١٨سنة..

ـ معقولة..

ـ ويعنـى إيـه المعقـول فـى كـل اللـى حصـلهم واللـى بيحصلنا وبيحصلى.

ـ انت لسة بتحبيه.. بدليل انك ما تجوزتيش من بعده.. وكمان عمرى ماسمعتك بتتكلمى عنه بشكل سىء..

ـ مش مسألة حب.. لكنه شئت أم أبيت هـو جـزء مـن تاريخى..

صمتت هالة فـى أعقـاب منـاداة الممرضـة علـى أحـد الأســماء وتحـرك صـاحب الاسـم علـى كرســى متحـرك متوجها ناحية غرفة الرنين المعناطيسى..

عدد شكات إبر التحاليل ووجوه الممرضات ورجال الأمن الجالسين ينظمـون دخـول المرضـى حفـرت فـى مخيلتـى حفرة عميقة.... حتى وجه فتاة رسم القلب غير المحجبـة وأنا أسألها ..

ـ انت مسيحية..؟

ـ لأ..

ـ أمال موش محجبة ليه زى الباقى..

ابتسمت ولم ترد.. ربما خشـيت أن يكـون " كـلام فـى السياسة.."

سألتها وهى تدهن منطقة الصدر والقلب بمادة تشبه "الجيل" ثم تثبت دوائر معدنية صغيرة موصولة بأسلاك تمتد إلى جهاز مريع ..

ـ وحياتك تشوفى قلبى سعة كام راجل..

قالت هالة وهى تضحك...

ـ ولا راجل..انت شريرة..

قالت الممرضة وهى تكتم ضحكاتها..

ـ لو سمحتى ..اسكتى عشان الجهاز اشتغل..

كنت قد اكتشفت مبكرا أن قلوب النساء ليست حكرا مباحا للرجال، لكن حب الحياة والكتابة أجمل كثيرا مما جعلنى أنكر كل الرجال وأثق فقط فى ضرورة تحققى كإنسانة وككاتبة. وكما يقول سعدى يوسف "أن تكونَ فناناً يعني أن تكون مسؤولاً ، بذاتكَ أوّلاً ، عن تناولِ الحياةِ كما تُـتناوَلُ فاكهةً ذاتَ مذاقٍ ".

شغل هذا حيزا كبيرا من حياتى، ولم يكن هناك متسعا لأى رجل فى غير حدود الصداقة والود البسيط.

بعد انفصالى عن سليم خشيت أن يدخل حياتى رجل تدهشنى معه البدايات البراقة والأغنيات والأحلام والأوهام كما حدث من قبل، ثم أكتشف عند أول محك أنه جامد أو ضعيف أو خامل أو "سى السيد" مثل أبى فأفر وأجرى ربما لآخر الدنيا.

جنبتنى آشعتى التى تخترق عقول البشر مغبة الدخول فى تجارب عديدة تستهلك طاقتى الإبداعية وتحولنى إلى امرأة "مخرمة" من كل جانب مثل منخل..هشمتها التجارب القاسية بحثا عن وهم اسمه الحب..

انتهت الممرضة من عمل رسم القلب، ووضعت التقرير فى ظرف من الورق المقوى الشاحب وأعطته

لهالة..أخذتـه منهـا وفتحتـه ونظـرت فيـه.. مجـرد منحنيـات صاعدة وهابطة لا تفصـح عـن شـىء ..لكنـه يعنـى الكثيـر لأهل الخبرة.

قـابلتنى "نانسـى"جارتى الفلسـطينية .. تقـول عنهـا الجارات "مقضياها عرفى" تخرج من زيجة إلى ثانية ومنهـا إلى أخرى وهكذا استهلكت عددا لا بأس بـه مـن الرجـال. كنت اتعاطف مع فرط إحساسـها بالغربة لكننـى اكتشـفت أن أغلب الجيران يكرهونها، ربما لأنها صـارت تتـدخل حتـى فى الشجرة التى يزرعونها أمام بيوتهم، وهـى تـزعم أنهـا زوجة لمسئول أمنى كبير..

حدثتنى أكثـر مـن مـرة عـن حكايـة المسـئول الأمنـى وأنها تسـتخدم اسمه فى ردهات وغـرف وطرقـات الأجهـزة الرسمية التـى تـردد عليهـا، فتلبـى احتياجاتهـا فـى التـو واللحظة. أخبرتنى فى البداية أنها كانت تعمـل فـى الامـم المتحـدة ولـديها خبـرة فـى الزراعـة والثقافـة الغذائيـة. جذبتنى مـرة لتنـاول فنجـان قهـوة فـى بيتهـا القريـب مـن بيتى وفتنتنى طريقتها فى تنسـيق بيتهـا الـذى بـدا مثـل متحف لا يلمس مقتنياته بشر.

هى الآن زوجة لطبيب عربى يتاجر فى الأدوية والآلات الطبية والسلاح والأعشـاب الطبيـة ويأتيهـا مـرة كـل شـهر ليسـتقر معها عدة أيام، تلبس البيجاما الحرير الفوشيا وهو يلبس الروب دى شـامبر الازرق ويعيشـا أحلى حياة، ربما لا تتحقق لزوجته أم أولاده. هكذا أفضت لى من أول لقاء..

تركتها تحكى وأنا مبهورة بذلك الوهج الذى يتدفق مـن نظرات عينيها.. وفيما بعـد عرفـت مـن الجـارات أن مسـألة الزواج العرفى هـذه تتكـرر كثيـرا. بعـدها رأيـت بنفسـى أن الرجال يتغيرون والروب دى شـامبر ثابـت لا يتغيـر .. وكـذلك البيجامة الحرير الفوشيا .. كنت أراها مع الواحد منهم فـى الشـرفة يتنـاولان الافطـار ولا تنسـى أن تلقـى بنظراتهـا وصرخاتها لعدد من أطفال العمارات المجاورة جـاءوا ليلعبـوا فى الحديقة.

شـكت لى أكثر من مرة من بائع الجرائد القصير النحيل مثل قرد، أنه يصر أن يدخل بالعجلـة بـين الممـرات الضـيقة للحديقة. كثيرا ما كنت استيقظ على شجارها معه وهو لا يتوانى عـن مقابلتهـا سـباب بـآخر ،مبـديا كراهيتـه لبلـدها ومن يأتى منها...

الممر الطويل مزدحم بأهل المرضى أمام ماكينة التصوير وهالة غطسـت بيـنهم لتصـور خطـاب العمليـة الجراحيــة... ووجــه جــارتى الجميلــة يبحــث فــى اليافطات المعلقـة هنـا وهنـاك ..ثـم رأيتهـا بعـد قليـل تتزعم مظاهرة مـن مرضـى السـرطان الفلسـطينيين أمام باب مدير المستشفى..

تموجات بنفسجية

بعد طابور طويل بين حاملى المرض وعناصر اليأس والإذعان جاء دورى.. أشعة الرنين المغناطيسى أصعب أنواع الأشعات.

نادت الممرضة الحامل اسمى بنصف لسانها فارتج جسدى وقاومت نظرات الشفقة فى عينى هالة البدرى والمرأة أم أزهار وبقية المنتظرين. وفى غرفة صغيرة أقل من متر فى متر، أدخلتنى الممرضة.. كانت حاجتى لتجاوز ضيق المكان والأفق والصدر كبيرة للغاية..

نظرت للسقف الواطىء وبياض الطلاء والأرفف التى وضع عليها ملفات كثيرة بأسماء مرضى فأدركت أن حاجتى للصراخ باتت وشيكة.

نزعت ثيابى الفوقية وحمالة صدرى التى بدت مثل شىء مضحك فى حالة من العبث التى أتحرك بين ردهاتها متوخية الحيطة والحذر. كان علىّ ارتداء "روب" أخضر يشبه روب الأطباء محاك من مادة تشبه ورق الكلينكس المخرم والسميك بعض الشىء. نظرت لصدرى

فى المرآة باعتباره المتهم الأول وبقية الأعضاء من حوله تسعى سعيا حثيثا لإثبات براءتها . ضيق المكان أجج سعة الخيال، فتخيلت أننى أتنفس خارجه ربما فى فضاء أوسع، كما سمح لهوس الذكريات أن يمخر عباب البحور القديمة ويأتى بقلاع الدهشة..

منذ جئت إلى الدنيا وأنا أشعر بوطأة ضيقها على رأسى ونفسى. لا أشعر بالراحة إلا فى الحدائق والغيطان والصحراء والأماكن ذات الأفق الممتد.. كم الاشعات الذى تعاطيته حتى الآن يجعلنى امرأة مشعة تماما.. وللآن لا أدرى مقدار الخطورة التى قد أصيب بها الآخرين..طرأت لى فكرة الذهاب إلى كل أعدائى وأولهم أبى الذى لم يمنحنى بهجة حتى ولو منقوصة.. نشر عناصر الرعب والفزع والقسوة فى سمائنا مثل دخان أو مثل غاز مسموم جعلنى أتهيب كل شىء.. البشر والمواقف والعلاقات والأشياء.. تخلصت منه فى مقابل أجمل سنين عمرى. ذلك الوقت الذى كانت حيويتى فى احتواء البشر ما تزال بخيرها ..

غرزت الممرضة "واصلة" إبرة رفيعة فى وريد ظهر كفى اليسرى وثبتتها ببلاستر.

أخبرتنى بأن الفنى سوف يحقننى بصبغة مثل محلول الملح. كان يجب أن أسألها عن درجة الألم. لم ترد.

فى غرفة الرنين دخلت آلة كبيرة تشبه الغسالات الضخمة فى مراكز التنظيف والكى الآلى التى انتشرت فى أغلب الأحياء فى الفترة الأخيرة.. بدا الجهاز مثل وحش كبير يخرج منه لسانا معدنيا بمقدوره أن يحمل انسان .. به فتحتان تتسع للثديين.. وتتغير قطع غياره حسب العضو المعتل فى الجسم .

استلقيت على بطنى وأمرتنى الممرضة أن أدخل ثديّ فى الفتحتين.. وداهمنى احساس أن البتر سيحدث فى التو واللحظة واللسان المعدنى يمتد ليسحبنى شيئا فشيئا إلى فم الوحش الأسطورى. وحش عالى التقنية فسلمت أمرى لله..

عندما هيأتنى الممرضة تماما جاء فنى الاشعة.. شاب وسيم وسامة الدمى البلاستيكية وأبيض بياض الشمع وبارد الروح ومصمت العينين والفم. له حضور يفح ثقلا جليديا وأكد علىّ بصوت معدنى أنه لكى نخرج بنتيجة سليمة مائة فى المائة هناك بعض المحظورات منها الحركة والسعال والكلام أو ابداء أية علامات ضجر. فقط على أن أخذ أنفاسا عميقة وأكررها. حمدت الله وشكرته أن ثمة شيئا مسموح حده الأقصى التنفس.

حدثت نفسى بضرورة تجاوز المهزلة ببعض الألاعيب النفسية مثل إعمال الخيال وإدماجه فى عالم آخر، بعيد كل البعد عن مكان التجربة. هكذا تمرست فى التحايل على كل الصعاب التى واجهتها فى حياتى..

تماما مثل الألعاب السحرية التى كنت أواجه بها قوانين أبى الصارمة التى كانت تبدو للآخرين قوانين غاية فى الغرابة مثل منعه لدخول أى من أقربائى الرجال إلى بيتنا، فأدخلنا فى عزلة صارمة، بينما هو يدخل كل بيوت قريباته ويستدعى بعضهن الغاضبات والأرامل والمطلقات إلى بيتنا ثم يشرع فى مغازلتهن على مرأى ومسمع الجميع.

ذات مرة جاءتنا عمتى فضيلة وهى ابنة عمة أبى ونناديها مجازا بعمتى . امرأة جميلة إلى حد مبالغ فيه، لها من الدلال والأنوثة ما يكفى بنات الأرض ويفيض. ومن ذا الذى لم يخر أمامها ساجدا. جاءته غاضبة من زوجها

وترغب فى الطلاق، فراح يشجعها على الطلاق وقبول الزواج منه تحت زعم أن الرجل له مثنى وثلاث ورباع بينما كان لعمتى "فضيلة" أهواء أخرى تتجاوز أبى وغيره.

رأيته بعينى ذات مرة وأنا أدخل لهما الشاى، يأمرنى بغلق الباب خلفى..وكانت أمى تبدو وكأنها ليست من هذا البلد.. "شارية" دماغها كما تقول..
يومها ضحكت وهى تعد الغداء وقالت :
ـ اللى خدته أم شوشة تاخده المنقوشة.

والحق يقال أن عمتى "فضيلة" الجميلة كانت أكثر النساء نقشا بما تحمله الكلمة من احتمالات الجمال و"الزركشة والنعنشة والنغنشة ".. الغريب أنها أنجبت بنات وأولادا لا يمتون لجمالها بصلة..
كنت أحب أقاربى وأزورهم أو أقابلهم فى الهواء الطلق بعيدا عن البيوت الخانقة..

داخلنى احساس عال بضرورة تجاوز رعب التجربة بكاملها وعلىّ بعد أن أفرغ من صور الألبوم البرتقالى أن أنتقى منطقة ظل محايدة. غير إننى أبدا لم أستطع اعتماد ذلك طول الوقت..

كانت تعليمات فنى الاشعة الجليدى الطابع والنزعة، والذى له عيون جامدة تشبه عيون الجلادين وممارسى التعذيب فى السجون. تذكرت أنه سمح لى بالتنفس، فقررت زيادة ألاعيب الخيال. فالمسألة قد تطول.. استنفرت طاقتى الذهنية فغرقت فى عتمة العيون المغمضة وتصالحت مع ما يحدث باعتبار أن النهاية الحتمية أن يبرأ بقية أعضاء الجسد من التهم الموجهة إليها. لكن الخيال لم يستطع تجاهل الأصوات التى أسمعها فتحرك وتداعى وتجلى..

بـدت جوقـة مـن الأصـوات المزعجـة المنتقـاة بعنايـة شـديدة مزيج مـن أصـوات لـدق هـون وخـبط أغطيـة حلـل ببعضها وخبطات مفتاح عامل أنابيب الغـاز بمفتـاح الأنابيـب عليهـا ورنـين وكلاكسـات سـيارات منفـردة ثـم مجتمعـة تتعالى شيئا فشيئا مثـل سـيمفونية شرسـة كلهـا تفتـت فى أذنى قدرتى على السمع والاحتمال.

بدا الخيال عاجزا عن احياء لحظات ماتت وضاعت فـى غياهب الذكرى، فرحت أجتر مـن جديـد صـورى فـى ألبـوم الصور البرتقالى وهو أحب الالبومات إلى قلبى..

ثم الألبوم الأخضر ..

صورتى وأنا فى المدرسة وأنا مع أخوتى وماما..وعمى عبد الرحمن جارنا وزوجته .. ذلك الرجـل الـذى كنـت أحبـه ربما أكثر من أبى.. تذكرت أنه أبدا ليست لأبى صورة معنا ولم تجمعنا به صور ولا أى شىء حتى الغداء. كان يتغـدى وحيدا وتقف أمى "زنهار" حتى يفرغ من طعامه ومـا علينـا إلا أن ننقض على مـا تبقـى منـه مـن طعـام.. وبختـك يـابو بخيت..

لم تكن أمى تفعل ذلك حبا لأبى بـل تنفيـذا لتعليمـات جدتى التى كانت تصرخ دائما..

ـ الراجل ياكل لوحدة والعيال بعدين..

غيـر أن "بعـدين" هـذه لـم تكـن تحمـل أى ضـمانات كافية..

أحسـنت جـدتى تأسـيس صـحة أبـى وتكفلـت أمـى ـ مرغمة ـ بالبـاقى.. وخرجنـا جميعـا للحيـاة بصـحة معتلـة، أمراض فقر وسوء تغذية وخصاء ذهنى ولعثمة وعاهات لأن أمى كانـت ترغـب فـى أن تثبـت بعـد فشـلها فـى زيجتهـا الأولى أنها صالحة للزواج مرة أخرى، وأنهـا قـادرة علـى أن تعمر ببيت رجل. يبدو أن عمارها هذا كلفنا الكثير.

بعد حقنة الصبغة التى مررها الفنى سحبنى اللسان إلى داخل الآلة الضخمة التى تشبه وأنا فى داخلها كبسولة فضاء، فقد أحسست على نحو وآخر أننى أطير أو أسبح فى فضاء غير مرئى، وأننى غير قادرة على اختراق تعليمات "وسيم الغبراء" فنى الآشعة..وأنا مغمضة العينين كاتمة الأنفاس على الرغم من أنه سمح بذلك جزئيا.

بدت تحركات صغيرة تمنحنى إيحاءً بأننى فعلا داخل كبسولة فضاء وأنا أمر داخلها بفضاءات مجهولة الهوية ، ثم مر الوقت تتصاعد فيه أصوات التموجات التى تصدر لى إيحاءً بأن أشياءً كثيرة تتكسر أو تتهشم أو تتشظى، تبعتها بشكل مباشر أصوات احترت فى تحديد كنهها لكن طمأننى قليلا أننى تعرفت على أصوات عالية تشبه تلك الأصوات التى تنبعث أثناء دق الكفتة ووشيش وابور الجاز وحركة مبيض النحاس والدق على الأسقف والجدران، وطبل أجوف صارم وصوت "شنيور" يخترق العقول والجماجم وأصوات بلدوزورات، وصوت قطار بضائع.

قررت استدعاء احدى ألعابى السحرية وتذكرت كيف قاومت عقبة سخيفة كادت تدمر ما تبقى من اعصابى حين حاصرنى شعور طاغ بالإغتراب لما رأيت مدينة الشروق الجميلة التى سكنتها منذ اكثر من عشرة سنوات وكانت خالية تماما وجلست أتشوق إلى مقدم البشر فإذا بهم ياتون صعايدة وفلاحون هاجروا الى البلاد العربية وقدموا بقدرة على شراء شقق المدينة فقاموا بتريف المدينة فضلا عن أنهم وبعد وقت وسط فوضى الغابة راحوا يعتدون على المساحات الخضراء امام العمارات ببناء توسيعات تدخل إلى شققهم مساحات شاسعة، فسدوا علىّ الأفق الذى كنت اراه ممتدا للسماء، والتهم الاسمنت المسلح والطوب والجير والزلط مساحة من الخضرة زرعتها بنفسى ذات يوم حين قدمت المدينة، فرحت أغلق على نفسى شيش النوافذ والشرفات وقد صرت مرئية للأطفال والرجال والنساء مثل

علامة استفهام وحيدة، فقررت أن أهاجر المدينة التى تم تريبفها إلى مدينة جديدة أخرى، ربما تمر خمس سنوات قبل أن يداهمها غزو مماثل. جئت مدينة السادس من أكتوبر حيث المساحات الخضراء والأفق المفتوح الفضفاض على السماء والشمس والقمر وأبنية ذات نسق جميل. أحببت شقتى حبا غير عادى فملأت علىّ الثقوب التى قد نخرها سوس إحساسى المقيم بالإغتراب..

مازال من شأن تلك الجوقة شديدة القسوة والضراوة إحداث تدمير منظم لجهازى السمعى والعصبى. مضى أكثر من ساعة والوقت يركب ورقة قذرة يحركها هواء خامل، وتحكمها عوامل الصدفة والسخف والغباء وكل عناصر الشر التى تنتهجها الطبيعة الجامدة والبليدة والعنيدة تنهض مع جوقة الاصوات الشرسة...

تخيلت أننى ربما أكون خطأً فى إحدى آلات التعذيب بأحد السجون وأننى متهمة بشىء أجهل كنهه تماما، وأن بعضا من أصدقائى هم عناصر نشطة فى جهاز استخبارى يسعى لاجبارى على الاعتراف بشىء ما..

والله العظيم ح اعترف ...

أعترف أن الحلم وحده كان سبيلى الوحيد لتجاوز كل عثراتى..

كما أعترف أننى تمردت على أبى حين حدد مستوى تعليمى بدبلوم تجارة تعس وبائس فتجرأت وتجاسرت وذاكرت لأحصل على بكالوريوس تجارة حتى أتفادى الزواج من ابن ابن عمه. "..الطينة من الطينة واللتة من العجينة".. كما تقول أمى..

أعترف أيضا أننى ثقفت نفسى بنفسى فى الوقت الذى كان بيتنا لا يعرف من الكتب غير بطاقة التموين، وان مجمل الظروف التى وضعنى فيها أبى ودعمته أقدار متواطئة ، كان من شأنها أن تجعل منى ـ على أقصى

تقدير ـ خادمة فى منزل احدى نزوات أبى، وهذا دون ادنى مبالغة أعلى تقدير يمكن أن تقدمه الآلهة لفتاة مقهورة، وبريئة وطيبة دون إضافات أخرى..

أعترف أيضا أننى لم أرغب فى الزواج بدون حب فأحببت وتزوجت رجلا أحبنى وسافرت من أجله لأعيش فى بلده، وإذا بى أشعر أننى ذهبت بقدمى وكل إرادتى للحياة فى بلاد تتنفس قهرا وقمعا و حرا وحربا وحروب طوائف وملل ونحل وتنويعات أخرى.....

أعترف أيضا أننى كنت نبيلة ونبية مع أولاد زوجى حين توسل إلىّ ألا أجعل ابنته أمام خطيبها وأهله ابنة لامرأة مطلقة ...

سأعترف أننى كنت صادقة قولا وفعلا حد البلاهة ..

سأعترف أننى أحببت أصدقائى ربما أكثر من نفسى ولما لم أستطع أن أكمل الطريق الذين ظنوا انهم رسموه جيدا اختفيت وذهبت بعيدا ربما لآخر الدنيا..

سأعترف أننى كنت أتمنى أن أصبح أما لكننى لم أسع لذلك ربما خشية من مصير مظلم ، فلم أرغب فى الزواج ثانية وصرت أكتب للأطفال حتى صار أطفال أخوتى وأطفال أصدقائى وأطفال الدنيا هم أطفالى..

أعترف أننى أبدا لم أندم على أننى لم أساهم فى الحفاظ على النوع من اجل أبدية البشرية حين رأيت الواقع يلتهم براءة الاطفال ونقاوتهم فى مجتمعات العالم الثالث..

سأعترف أن كتبى هى أيضا أطفالى الحقيقيون..وأننى أرغب فى الحياة فقط من أجلهم.. هناك عدد من المخطوطات.. ـ مجموعتيى قصصيتين وثلاث روايات ـ أطفال قصر يجب رعايتهم حتى يبلغوا سن الرشد..

سأعترف أننى حاولت التمرد على وظيفتى التقليدية كمحاسبة فى شركة الكهرباء والعمل كصحفية فى أى جريدة أو مجلة، لم يكن إلا استبدال سجن بسجن بشروط أفضل.. كل منهما يحولنى إلى ترس فى آلة لإنتاج القهر....

سأعترف أننى لم أكره أبى كل الكراهية فقد التمست له الكثير من العذر حين حدقت النظر فى وجه جدتى الفظة القاسية ذات صباح وهى تحكى عن انها أرضعته لبن غوازى ولبن أثداء بنات الغجر.

سأعترف أن متع الدنيا تم اختزالها فى متعة الكتابة والقراءة ومشاهدة السينما لأعيش حيوات كثيرة ربما تعويضا عن فكرة الخلود التى كانت تؤرقنى منذ طفولتى..

خشيت فى غمرة الاعترافات وفى محاولة للتمرد على رعب الآلة الضخمة أن يحدث خطأ فيعاد الفحص. خشيت أيضا أن تتفكك حين سمعت صوت حطام وكسر زجاج ومسامير تتفكك..

قالت هالة فيما بعد
ـ كويس انك اتحملتى للآخر.. .

بعدها شعرت بأنى متعبة ومكدودة ومقهورة بفعل عوامل عديدة ناصر غبية..
لم نسلم من أوامر الجراح..أحد الأشكال بيروقراطية الطبع والطابع، حين طالبنا بالذهاب إلى "خمسة أ" فى الطابق الخامس. ذكرنى ذلك بقصة الكاتب الايطالى ديبونزاتى " الطابق السابع" التى لا أنساها.. صعدنا فى مصعد من حديد.. قذر وقبيح ممتلىء بمقاعد للمرضى الذين يتحركون على عجلات أربع.

بدا الطابق لمرضى الأورام من كل نوع.. بؤس الحظ والطالع.. كائنات بائسة مذعنة للمرض واليأس والاستسلام. وممرضات هن أصلا يشبهن أورام صغيرة تتحرك على أقدام..

قلت لهالة..

ـ أنا تعبت أرجوكى نمشى من هنا..

ولم ترد حتى لحقتنا الممرضة التى تجلس على الريسبشن بأن شخصا ما يريدنى على التليفون..

...

الطابق الخامس

في اليوم المحدد لدخول المستشفى فاجأنى صاحب الشقة بأنه يرغب فى بيعها وأنا أولى من غيرى بها.. غامت بى الدنيا لكننى تماسكت وطالبته أن يمهلنى شهرا .. حاول أن يوهمنى بأنه معرض للسجن ويرغب فى بيع الشقة.. لم يكن قد مر عام على تاجيرى للشقة فى سياق تعاقد هو شريعة المتعاقدين لمدة ثلاث سنوات..

جاءت سهام بيومى ووفاء حلمى وجعلتهما تحدثان أمى بالتليفون لتؤكدا صدق كذبتى عليها بأننى سأنشغل عنها لعدة أيام بأحد المؤتمرات وأن المؤتمر يرشحنا ككاتبات لمؤتمر آخر فى الاسكندرية. صدقت أمى ونزلت بحقيبتى تحملها عنى سهام بيومى وتساندنى وفاء حلمى .

كان الطريق هادئا على غير العادة مما سمح لى بدرجات من الشرود أيقظنى منها صوت سهام وهى تقول لى

ـ ايه يا نعنع.. والله بكرة ح تروق وتحلى..

قالت وفاء :

ـ والله أنا قلبى حاسس خير يا نعنع..

طريق محور أكتوبر من أجمل الطرق الجديدة .. أستشعر فيه بجمال الريف الأوربى الذى رأيته فى النمسا وألمانيا وسويسرا ..ليس مجرد طريق.. جبال ومنحدرات ومساحات خضراء ممتدة أو صحراوية متباعدة ومتقاربة تفجر بداخلى الرغبة الدائمة للتأمل واستنشاق كم هائل من الأوكسجين..

لأول مرة أشعر بعدم الرغبة فى رؤية كورنيش النيل فأغمضت عينى وأسندت رأسى ثم انتفضت لأنظر إلى الدنيا التى ربما أغيب عنها أثناء العملية. تراجعت ورحت افتح ملء عينىّ لأعب من مشهد النيل والأشجار الوارفة وخطوات الطامحين والسائرين وقصص الحب المترامية على ضفافه..

دخلنا المستشفى والتوجس من مشهد الرجال والنساء الذين ينتظرون جثة ميت أمام مسجد المستشفى جعلنى أنظر إلى السماء وأتابع سرب طيور هاربة من مناخ الموت والألم على أنغام أغنية لعلى الحجار

خلاص خرجنا م الأزمة وترجع على دارك مجبورين..
ياللى سريرك من فضة النور ف كفك يتوضى..
قالت وفاء حلمى : شفتى يا نعنع .. الفال بيقول ايه..

حجزونى فى غرفة فى الطابق الرابع.. دفعت الفرق من أجل غرفة "لوحدى"، بلا رفيقة ورم أخرى تلاحقنى آهاتها لتدمر ما تبقى من جهازى العصبى.

ظللت ليوم كامل ثم نوهوا لنقلـى بعـد إجـراء الجراحـة للطابق الخامس.. ابتسمت وقلت لهم..

ـ قصـة "دوبـونزاتى" الكاتـب الايطـالى كـان اسـمها " الطابق السابع".. ابتسمت سهام وقالت..

ـ انسى الثقافة الأيام دى الله يخليكى..

ما قرأته طيلة حياتى أصبح ذاكرة محفورة فـى عقلـى وروحى ونفسى مثل مدينة كاملة.. فيهـا شـوارع وحـوارى وأزقـة وعمـارات وبيـوت وشـقق وغـرف ودهـاليز وممـرات.. صارت الثقافة مدينـة بحجـم الـوطن أعيشـها وحـدى..كنت أدرك اأن الثقافة ترتقى بالفتاة التلقائية والريفيـة بـداخلى، لكن مع الوقت كنت أشعر أننى أقرأ ثقافة وعليّ أن أعيش "تخلف".. لكنى عشقتها فقد كنت عبر القراءة أجدنى دون أدنى شك أفك قيـودى واحـدة فواحـدة وأعمـل علـى حـل العقـد التـى تسـبب فيهـا غيـرى فـى شـروط الممكـن والمتاح..

فى يـوم العمليـة جـاءت منـال أختـى وزوجهـا وسـهام وشوقية الكردى.. أخذت سهام بيومى على جانب وقلـت لها إنى دفعت إيجار شقتى فى أكتوبر لمدة شـهر قـدام.. مدة كافية لأن تخرج مجموعتين قصص قصيرة وروايتين من علـى الكمبيـوتر وتقـدمها للطبـع بعـد مـا "تـبص فـيهم"... قالتلي بقسوة ..

ـ انت بت خايبة..

ـ اهو إنت .. افهمى بس

ـ مش عايزة أفهم.... الطب اتقدم بشكل مذهل... انت بتتكلمـى ف ايه..وبعـدين مـا حـدش ح يخلـص قصصـك ورواياتـك غيـرك.. وانـت اللـى ح تتخـانقى مـع الناشـرين عشان كتبك..

ـ تفتكرى ح أعدى منها يا سهام..

ــ خـلاص يـا سـتى ..قـوليلى أبعـت لـك الشـيك بتـاع مكافآت النشر على الجنة والا على النار..

ـ انت شريرة..

بدت ضحكاتنا مثل جبيرة جبس وشاش وقطن، أو محلول جلوكوز معلق فى الهواء أو مريضة تتدلى منها خرطوم "الدرنقة" تقابل حبيبها خلسة فى نهاية الطابق الخامس..

كنت تحت وطأة الجرح أفهم جيدا ما يحدث حولى بينما العيون ترتبك وتضطرب وهى ترسل نظرات أشم رائحتها جيدا. تنسى شوقية ووفاء وأختى منال أننى "تربية قطط".. صرت أشم البشر والمواقف والأحداث لأستبطن كنهها.

دخلت غرفة الجراحة.. قاعة كبيرة أشبه بالسلخانة لكن بشروط أخف وطأة. رأيتها حين رافقت جدتى ذات مرة وأنا صغيرة لشراء لحمة رأس وكرشة وفشة وكوارع.

الممرضة عصابية والأطباء فى حالة زهو ربما بالذبيحة.. لم يتركوننى حتى أتأمل وجوههم حتى رحت فى غيبوبة تامة..

وكأنه الغيم تصعب الرؤية من خلاله ثلاث ترولات معدنية ملقى عليها ثلاث جثث أقصد أجساد ملفوفة فى ملاءات خرجت لتوها من غرفة العمليات لغرفة "الإفاقة"... وضوء شحيح وأصوات ممرضات يتحدثن عن الطبيب الفلانى والعلانى.. وصوت الجثة اليمنى ـ صوت رجل ـ

ـ انت عاملة عملية ايه..

ـ سرطان ثدى وانت ثدى برضه..

ـ لأ سرطان معدة..

وصوت الجثة الثالثة يطفح بالتعب..

ـ وطوا صوتكوا شوية.. مش عارف أموت

ثم نغيب ثلاثتنا إلى وقت آخر وعالم آخر..

الصوت كأنه قادم لتوه من فسحة بينها وبين اليقظة دنيا مغايرة.. فبحثت بداخلى عن صوت آخر.. ليس هناك يقين بأن موتى هذا مؤقت .. ربما لوقت ليس قليل لا أدرى مداه.. وربما يحدث بعث من نوع جديد.. ولتفادى

الوقـوع فـى مشــكلات جسـيمة مـع الجثـث رحـت ألعـب لعبتـى القديمـة لتبديـد الوقـت والملـل..أجتر مـن غيمـات الزمن القديم مباهج صغيرة..

المشهد كاملا تحتفظ به ذاكرتى وأستدعيه دائما ثم أتراجع .. آن الأوان لفك أسـره. هنـاك ضـرورة ملحـة ليكـون ماثلا أمامى مثل ذكرى فاضت رائحتها فى الخريف.. ووجه "فيفى".. "بنت عبد العزيـز بتـاع اللـبن" الـذى يتحـرك فـى شـوارع العباسـية البحريـة كـل صـباح وهـو يلحـن جملتـه المعهودة..." لبن..يا عزيز يا لـبن" وتصـلك الجملـة مشـكّلة ومنغمة وملحنة .. لحن طبيعى يوقظك على توقيت أشـبه بالساعة البيولوجية..وأحيانا يدخل معك فى نسيج الأحلام فـتحلم بـأن كـل الـدنيا بيضـاء والحيـاة بيضـاء وكـل شـىء أبيض..

أغلقت "فيفى " باب الفصل وأومأت لبنـات فصـل تالتة تانى ..كـل مـنهن تنـزع ثيـاب المدرسـة وتقشـر جسـدها فى نصفه الأعلى حتى اللحم، لأرى أمـامى أثداء صغيرة ونحيلة مثل كرات .. رأيتهن يتحـركن فـى اتجاهى فتهتز الكرات وهى تتقدم نحوى فى مسيرة عجيبة ومدهشة..

ـ اقلعى..
ـ أقلع ايه؟.. فى ايه..؟
ـ إقلعى .. ماحدش ح يقلعك..
ـ انتو اتجننتوا ..حا أفتح باب الفصل واجرى..
ـ اقلعى..
ـ حافتح شباك الفصل وحصرخ..
ـ اقلعى ..

على الباب تقف فردوس بنت النحاسة بجسـدها الضخم ترسل نظرات نارية مرتبكة . جدتها بنت جـامع بفلـوس البيـت الـذى تهـدم وباعتـه واشــترت سـطوة الايمان والتقـوى...تجلس أمـام الجـامع لتختـار بعنايـة فائقة من يصلى من بين كثيرين تعيـدهم بـلا صـلاة..

لابد أن يكون نظيفا ويرتدى ثيابا تليق بدخول جامع النحاسة..

ـ اقلعى..

كنت أضم فتحة قميصى الابيض على صدرى وأتعلل بالزراير الكثيرة.... زى مقدس.. قميص أبيض بارلون بفرانشة بيضاء محلاة بالدانتيل والجيب الكحلى الترجال وقروح ركبتى النحيلتين تطل هى الأخرى تلويحا لما يمكن أن يحدث..

ـ اقلعى..

عرفت أن "السوتيان" الأسود الساتان هو الهدف.. أسريت لزميلة لى أن أمى حكمت علىّ بارتدائه لأن صدرى رغم نحافة جسمى يهتز أمامى. أمرت عمتى بشرائه من العتبة وقد عرفت المقاس بنظرة عينها المدربة..

كنت حقا أول فتاة فى الفصل ترتدى ـ قسرا ـ"سوتيان" ولم أكن أدرى ان هذا سبق أحسد عليه وأحاصر من أجله بعيون مضطربة وأجساد نحيلة.. كان علىّ أن أوافق لتتبادله بنات الفصل فى فرح وحبور وبهجة تفتح بواكير أنوثة الجسد والروح.

كانت أجسادنا جميعا سمراء عجفاء تطل من قمصاننا البيضاء مثل أعواد قطن جافة.. وكأنه قدر بنات العباسية الاعدادية..

ارتدته كل واحدة ورأت نفسها في زجاج نافذة الفصل المغلقة والواقفة خلفه أحلام أخت فردوس بنت النحاسة.. تسده بظهرها حماية وضمانا لنصاعة الرؤية.. لترى كل واحدة نفسها وهى ترتدى حمالة صدر .. ساتان أسود ودانتيللا، وأنا واقفة فى حراسة سهير بنت الصهبانة وسعاد بنت الفكهانى..نماذج فذة من عصابة بنات شارع المناخ فى العباسية، كما كنا نلقبهن.

أضم ذراعى على صدرى وأستعجلهن ليردونه خشية أن تدخل المشرفة أو حتى الفراشة فجأة..

المدهش أن المشهد بدا احتفالية ببداية كيمياء تتشكل فى أجساد نحيلة بأنوثة كامنة لبنات الفصل وكنت أخشى أن أرتدى بقية ثيابى وأعود إلى بيتنا بلا حمالة صدر فتنصب جدتى محكمتها القاسية..

تدخلت عوامل الصدفة بغياب عدد كبير من المدرسين والمدرسات فى رحلة جبرية لتأدية واجب العزاء فى والدة الناظرة. بدا ذلك ـ لصالح بنات الفصل ورغبة كل واحدة فى أن ترى نفسها بنفسها وهى ترتدى "حمالة صدر" ساتان أسود وتتحرك أمام البنات وتمعن النظر إلى نفسها فى زجاج النافذة المدعوم بظهر أحلام بنت النحاسة.

لم تكن فتحتا الحمالة تمتلىء بأثداء البنات تماما.. كن نحيلات بشكل مبالغ فيه وكأنه قدر واضح أن تكون بناته نحيلات وبلا أثداء ،حتى "إيفيت" بنت عم صبحى وأم جيهان جيراننا الأقباط والتى كان لها جسد ممتلىء نسبيا.

كنت أشعر بعبء امتلاء الحمالة بثديىّ على نحول جسدى وبوادر شىء تحاصرنى من أجله عيون شباب الحى وأنا أخفيه باحتضان حقيبة المدرسة، وكأنه عيب خلقى..

طفر بداخلى سؤال عن أهمية تلك القطعتين من الجسد لتهيأ لهما "شيالات" خاصة.. كنت أربط شعرى بشريطة بيضاء مثل نيللى وأقصر الجيب الترجال الكحلى وأشمر القميص مثل سعاد حسنى وأفتح زرارين لابتعاث قدر من الهواء ثم تزجرنى أمى فأغلقهما لأرتاح من "زنها".

كان النموذج والمثال للبنات "سعاد حسنى" فى الست الناظرة وماجدة فى "المراهقات" ونيللى

فى بيت الطالبات مع اختلافات طفيفة ربما فى الحى وشكل البنات والشباب فيه..

كنت اسمع بأذنىّ بنات المدرسة وهن يتبادلن الحكاية السرية والسحرية..

ـ مفيهاش غير صدر..

ـ بنت الكلب..هى الوحيدة اللى لابسة "سوتيان"..

ـ احنا كمان قلعناهولها ولبسناه واحدة واحدة...

فى نهاية اليوم ألقوا لى بـ "السوتيان" وقد بدا مثل عظمة نهشها ألف كلب.. ألقوها لى مشيعة من عيونهن بنظرات الحسد والغل..ولا أدرى لماذا وسرعان ما جريت به إلى التواليت فى نهاية المدرسة ثم خرجت بعد أن تفاديت قراءة الجمل الصغيرة المكتوبة على حائط وباب التواليت..

ـ امتى آخر مرة باسك الواد ع السلم ..

ـ بنت النحاس ماتنباس..

ـ بنت اللبان ... اللى بان ..بان

خرجت أنظر يمينا ويسارا خشية مؤامرات أخرى.

كانت المدرسة بالنسبة لى مؤامرة كبرى على روحى وعقلى.. كل المعارف التى يسكبها المدرسون والمدرسات فى رأسى أعرفها من كتب مكتبة عم حسان جارنا.. باستثناء الجبر والرياضيات وهى معارف سقيمة لا أشعر بأى رغبة فى فهمها..

فى البيت حكيت لعمتى "منصورة" كانت تعيش معنا.. بعد أن تزوج عليها زوجها فكرهته وطلبت الطلاق.. تحاصرها عيون أمى أنها هى التى ستتسبب فى إفسادى ربما تقصد إنضاجى قبل الأوان.

فى ذلك الوقت كـان عمـى حسـان جارنـا وتـاجر الكتب بالجملة. يورد لتجار الكتب على سـور الأزبكيـة ينزح من ركام الكتب التى تسقطها سيارة نقـل أمـام الباب ويصعد بها مع عماله الى شقته. كنت أقف مثل قطة على باب جزار تنتظر قطعة لحم يلقيها لهـا أحـد صـبيانه. أترقـب لحظـة يسـقط فيهـا أحـد الكتـب مـن العمال أو أدخل لإحدى بنات عم حسان لأنتقى كتابـا فـى مقابـل أن تـرى كـل واحـدة صـدرها فـى حمالـة صدرى.

دارت "حمالة صدرى على بنات المدرسـة وبنـات العمارة وبنات العائلة والحى.. حمالة صدر سوداء مـن السـاتان الأسـود،موشـاه بآجور ودانتـيللا رفيعـة. كانـت حلما لبنات شـارع المناخ فى ذلك السـن..

.. صـوت عجـل الترولـلى الـذى يسـرع بـى فـى اتجاه الغرفة يقلب طبقات من ذكريات صغيرة وكبيـرة، ووجـه شـوقية الكـردى باكيـة العينـين تمسـك بيـدى وتقبلها وسـهام بيومى تحكم الغطاء على جثتى.. ثـم أشعر بأننى أبعث من مـوت صـغير.. وصـوت الممـرض يؤكد أنه فى الغد لابـد مـن الصـعود للطـابق الخـامس وتأخـذنى غياهـب أخـرى فـلا أفيـق إلا علـى صـوت شـوقية الكردى وسـهام بيـومى وأخـى مجـدى الـذى يجزم أن هذه الغرفة ليست أفضل مـن غرفـة الطـابق الرابع..

حالة الاستعداد القصوى....

نزلت من بيتى وأنا أردد بينى وبين نفسى...
سأرفع حالة الاستعداد القصوى حتى آخر سنتيمتر طاقة فى جسدى وفى روحى.. حدثنى يوسف غطاس فى التليفون طبيعة مرض السرطان.. فقال ..

فى الجسم خلايا تفقد وظيفتها فتجن وتشرد وتوجه كل طاقتها لإفشال وظائف الجسم الأخرى التى مازالت لها وظيفة، فتهاجم وظائف الكبد والكلى وجهاز المناعة وتقتل كرات الدم الحمراء وتنهك الجسم كله... والعلاج الكيماوى ـ أول جلساته اليوم ـ يفعل ما هو أبشع.. يعتم الرؤية ويسدل استارا من الكآبة ويهاجم الوظائف الحيوية للجسم ويسقط الشعر والأسنان ويصبغ الجلد بألوان داكنة ويرسى فى الحلق طعم السأم مع رغبة دائمة للتقيؤ..

فكرت وشردت بعيدا عن يوسف، وللمرة الأولى أتركه يهدر وأنا فى عالم آخر..كنت أتساءل فى نفسى .. هل خلايا الجسم فقط التى تفقد وظيفتها.. لو اعتمدنا منطق التماثل بين خلايا الجسم وخلايا المجتمع والكم الهائل الذى فقد وظائفه ألا يجن ويشرد وينقسم ويتكاثر ويهاجم من يملكون وظائف ومال وسكن وحب وحياة.. ويعيثون فى الأرض فسادا وتطرفا وتعصبا وجريمة وادمانا وعهرا..أليس المجتمعات هى ايضا يتم سرطنتها..

أفقت على كلمات يوسف..

: رحتى فين..؟..

رفضت أن يأتى شقيقى عاطف ليأخذنى من المدينة. حتما سيتكبد معاناة فادحة أن يسافر من القاهرة لمدينة أكتوبر مرتين، فتجاسرت على الجرح والألم وقلت أعيش الحياة. أخذت الميكروباص وجلست إلى جوار السائق ودفعت أجرة "نفرين" كنت أخشى أن يرتطم أحد بجرحى ومازلت مثل كيان زجاجى هش، وبدت العيون توجه إلى سهام الادانة بالترف والرفاهية ولا أحد يدرى الحقيقة المحفوفة بوطأة الحزن والألم..

نزلت عند كورنيش النيل وأنا أحس جيدا أن نظرات عيون ركاب الميكروباص تزفنى بنظرات الغل والحقد وربما الحسد. أخذت تاكسيا ..لوح سائقه بأننى مسيحية لأننى

غير محجبة.. صمت ومررت ملاحظته ونظرت فى ساعتى أرقب موعدى هناك فى التاسعة لتناول الجرعة..

مشهد الحدائق التى تغرق فيها المستشفى لم يستطع أن يرفع عن نفسى إحساسها المقيم بالسأم.

ظللت أنتظر عاطف الذى تبرع أن يرافقنى الجلسة الاولى . مرت الساعة للعاشرة تركب سلحفاة عتيقة تتراوح بين وجوه المرض فى انتظار قدر غريب ووجوه عاملات التنظيف بثيابهن الزرقاء يتابعوننا نحن نساء الثدى الواحد بعيون مفتوحة على نوافذ أخرى .. ربما على جيوبنا أو حقائبنا الجلدية دون أن يأبهن بمواقع الألم. يرونها مجرد نوافذ مفتوحة للرزق.

أكدت الممرضة أن الجرعة اليوم حقا..ونادت أسمى..

السرير الأخير على اليمين إلى جوار النافذة لأرى مساحة من السماء .. مساحة ضوء وقدرا لا بأس به من الهواء.. كل الأسرّة محاطة بستائر تعزل كل مريضة عن الاخرى. غير أن تبادل نظرات العيون شحن النفوس والأرواح بمزيد من الدعم والمساندة من رفقاء الألم الواحد.. كلنا نساء بثدى واحد وكم هائل من نظرات البؤس والوهن..والرجال يلعبون أدوار السنيدة، لا مجال للعب أدوار أخرى..

تساميت على الألم والسأم.. طيلة عمرى أعالج ما ينقص فى احتياجاتى بالسمو. فعلت ذلك مع الوحدة والفقر ووظيفتى القامعة ومع الرجال وأشكال الإدانة الاجتماعية التى تسدد للمرأة الوحيدة والمرأة الكاتبة غير المدعومة بحزب أو مؤسسة ثقافية أو اعلامية أو تكون احدى بنات الأرستقراطية الثقافية.

أخرجت من حقيبتى جريدة، أحرص على أن أضع كتاب أو مجلة أو جريدة فى حقيبة يدى لوقت السأم. داهمنى

الاحساس بالوحدة فطلبت سهام بيومى ويوسف غطاس وشوقية الكردى وعزت عواد.

لا أحد يرد فى المدينة.

تعاليت على الرغبة فى سماع صوت بشر وظللت أتابع مساحة الضوء الغزير التى غمرت العنبر وأزاح الكثير من الشحوب عن وجوه المريضات ، والألم فى العيون يسكب نفسه على الأسرّة والوجوه نظرات وحسرات.

فتحت كل واحدة مصحفا وراحت تقرأ بعينيها . أو تنهض لتتوضأ وتصلى. جاءت فتاة صغيرة تحدوها بعض البدانة والى جوارها أختها فتة بيضاء خفيفة الظل راحت تبتسم لى فى محاولة لحل شفرة فمى الذى صار مغلقا على الكثير من الحزن والكآبة..وسؤال ضخم بحجم المأساة

لماذا أنا؟

ولم تكن اجابة السؤال إلا بسؤال..ولماذا كل هؤلاء النساء

شقيقتها السمراء هى زميلتى فى الجرح والألم. نجلاء ذات الثامنة عشرة عاما.. استأصلت ثديها الأيسر. وقد مر اليوم شهران ونصف تقريبا ومازالت تبكى وتصرخ فى الليل. لغتها تدل على أنها من العريش من شمال سيناء، فضلا عن الجمال السيناوى الذى يحدوها وشقيقتها الشقراء.

رنات الموبايل تفرحنى، أن صوتا بشريا على الجانب الآخر من المتاهة..كان يوسف غطاس .. هدأنى وأوصانى بأننى يجب التعامل مع المسألة ببساطة شديدة وأن أداهم الكيماوى قبل أن يداهمنى. كم هو جميل هذا الرجل الذى أعرفه من وقت قصير. عمدته طبيبى الجميل الذى ما أن أرفع سماعة التليفون وأسأله حتى يجيبنى

ويشفى حيرتى. فكرت فى أن أزوجه صديقتى المسيحية إلا أن المرض فاجأنى وفاجأه..

لم يأت أخى عاطف وكدت أفقد الأمل فى مجيئه ثم حمدت الله أننى سمعت صوت يوسف وراح يعزز من عزيمتى وطاقتى على المقاومة.. رفضت أن يرانى فى كل هذا الضعف.

حاولت أن أمد جسرا بينى وبين الفتاتين . كانت ابتسامة الشقراء دافئة بشكل يشيع الأمل فى أجواء الألم. وبدت نظرة السمراء حزينة ومتشائمة. نهضت واقتربت منها وحدثتها.. ثم سألتنى..

ـ انت يا صحفية يا محامية..صح..

ـ أنا كاتبة ..أديبة يعنى.. باكتب قصص وروايات..حاجات زى كدة.

ـ زى روايات عبير.. خلاص اكتبى حكايتى.. حقعد تحت رجليكى وأحكيلك..يا بوى .. الدنيا وحشة بشكل.

ربتت على كتفها وقبلتها..

ـ ولا يهمك..بكرة ح نفتكر الأيام دى ونضحك..

قالت سهام لى آخر مرة

" أخشى عليك من تجبرك على نفسك.."

ماذا أفعل.. أعلق الناس على شماعات ليأتوا معى.. أخى أو صديقة لى..

تذكرت مقطعاً من قصيدة لمحمود درويش..

"بقاياك للصقر..من أنت كى تحفر الصخر وحدك"

اقترب موعد جرعة الكيماوى، بدا ذلك فى حركة الممرضات بين الأسرّة حاملات زجاجات بلاستيكية بيضاء..فكان لابد من استدعاء عاطف على وجه السرعة. أوصيته بأن يأتى متأخرا. من أجل أن يوصلنى فقط، وحتى لا يرانى وأنا أتلقى الجرعة .... تليفونه المحمول لا يزال مغلقا فحدثت أمى وأكدت عليها بضرورة البحث عنه وأن

يحـدثنى. صـوتها يشـحن فـى نفسـى إحساسـاً مرعبـاً بالحزن والكآبة. بدت وكأنها تعرف.. مازالت لدى الرغبة فى اخفاء المسألة عنها..

جاء عاطف بلحيته وأناقته التى يحرص عليها فـى كـل الأوقات.. تخيل أننـى أنجـزت المهمـة. أخبرتـه أن لا شـىء يحـدث وأننـى هنـا مـن التاسـعة ومضـى أكثـر مـن أربـع ساعات دون جدوى..

جلس إلى جوارى على السرير وتراوحت عيونـه بينـى وبين الشـقراء السـيناوية شـقيقة نجـلاء ووجـدتها تنبـرى وتأتى لتسأل عنى. ابتسمت وتجاهلت أهواءهـا المضـمرة وأخذت منها جريدة الأخبار.

لا شـىء يحـدث فـى الحيـاة.. اعلانـات عـن دشـات ومحمول وسلع استهلاكية ومراكز تجميل وحـوادث وحركـة بانورامية للسادة أعضاء مجلس الشعب والحكومة. والأبراج والحظ...حظى اليوم البهجة حتمـا قادمة..الممرضـة قادمـة تحمل جرعة الكيماوى. فتاة نحيلة نحـول مبـالغ فيـه،تحيط أسنانها بسياج من السلك فى محاولة لتقويم البارز منهـا. أعطتنى حقنة كبيـرة مضـادة للقـىء وثانيـة لتبطـين جـدار المعدة. اجراء استراتيجي فى مواجهة جرعة الكيماوى..

أكدت الممرضة بأن الاثنتين الأخريين ستؤلمانى.. نظـر عاطف مشفقا فابتسمت وقلت له..

ــ.. لمـا بأعمـل حـلاوة أو أنـزع الشـعر عـن وجهـى وحواجبى بأحس بكثير من الألم....

مساحة الضوء التى تتساحب مـن الحجـرة أوحـت لـى بأن الخطر مازال قائما. وأننى لم أجتزه تماما..

حين قرر لى الطبيب علاجا هرمونيا فقط نظر طاقم أطباء الجراح ـ الجزارون المهذبون كما يقول برنارد شو ـ بحذر وأكد اكثرهم بضرورة أخذ جرعات " الكيماوى ".

أجمع الكل على أنه يطهر الجسد كله من احتمالات عودة المرض. وبدلا من مراودة شبح الموت عبر خمس سنوات العلاج الهرمونى لابد من علاج حاسم..

أمسكت الممرضة كفى وقالت:

ـ انت أول مرة تاخدى كيماوى..باين

ـ بيبان ازاى؟..

لسة ظهر كفك بحاله..

رحت أتابعها والبنات والنساء فى أعمارهن المختلفة مثل سجينات الحالة واللحظة الراهنة. أغلبهن أمسكن بالمصاحف ورحن فى حالة قراءة متعمقة هاربة وفارة. وأقاربهن يقشرون الموز والبرتقال والتفاح لتفادى القىء على بطون خاوية.

بعد وقت أتت الممرضة بثلاث زجاجات بلاستيكية منها واضح العبوة ومنها المغلف بورق معدنى لا يشى بما فيه. وضعتهم إلى جوارى على السرير. نظر عاطف..

ـ كل دول..

ـ الواحدة تستوعب ساعة..

ـ يعنى تلات ساعات..

ـ لو وراك حاجة سيبنى لوحدى..

أخبرنى أنه لا يقلقه شيئُ إلا أن هذا وقت توزيع الزكاة وهناك من يقصده فى توزيع زكاته على المحتاجين.

علقت "ايمان" ـ الممرضة النحيلة ـ زجاجة محلول الكيماوى الأولى فى الحامل المعدنى وأدخلت مبسم الخرطوم الشفاف فى فتحة الكانيولا وأطلقت المحلول فى وريدى.. وبدا شىء بارد يتسرب إلى جسدى..

أخبرنى يوسف غطاس أنها كمية هائلة من السموم لمحاصرة المرض.. شبهها بأنه مثل ضيف ثقيل يدخل الجسم وعلى المريض أن يدخل له عناصر طرده. كل أنواع الطعام الممتعة تجعله ينتعش ويستقر ويستمروكل أنواع الطعام غير الممتعة تجعله يهرب..

أوصانى يوسف بنسيان عدد هائل من الأطعمة يتغذى عليها السرطان مثل اللحوم والفاكهة والسكريات والألبان والمنتجات الالبانية والدهون والزيوت .. لم أوقف معلوماتى على يوسف غطاس رغم ثقتى الوافرة فى عقله ومعلوماته الطبية. فتحت الانترنت ووضعت كلمة سرطان الثدى.. وحصدت كما هائلا من المعلومات ثم كتبت على الباحث "جوجل" العلاج الكيماوى والإشعاعى.

.

وعرفت كما هائلا من المعلومات وطبقتها قدر استطاعتى .. فالأطباء يتعاملون مع المرضى بحالة من الاستعلاء أتوجس إزائها..لم يتحدث معى واحد منهم. يبدون لى مثل الكهنة فى المعابد القديمة يحرصون على غلق أفواههم خشية أن تسقط منها الدرر..

كنت أعلم جيدا أن سوائل الكيماوى هذه مواد سامة تستدعى شحذ جهاز المناعة لمواجهتها والتصالب إزائها.. حين رغبت فى النوم حذرتنى الممرضة.. تذكرت أن فى سجون التعذيب يحظر النوم أيضا..

أخفيت عن أخى احساسى بالاحتياج إلى بشر يساندوننى فى تلك اللحظة الراهنة حيث "الثقل" شديد على عقلى وظهرى .. بدا مترددا بين البقاء والذهاب إلى جمع ثواب أعظم. مسحت دمعة واصلت انحدارها فسألنى عن ثمة ألم..

بعد وقت وهو يواصل الحديث عن انجازاته فى عالم المال والبيزنس وأنه لم يقدم تنازلا للواقع الذى يتحرك

فيه، غير أن أخواتنا البعدا يتابعونه من آن لآخر من أجل لحيته التيطلقها . دهشت فلا تبدو على لحيته أنها لحية اسلامى متطرف بل لحية فنان تشكيلى أو كاتب أو أديب أو موسيقى..

منذ أفسده أبى بعد عودته من العمل فى احدى شركات البترول الأمريكيةفى السعودية،ملأ روحه كراهية للتعليم فلم يستطع تحصيل غير مؤهل متوسط ثم آثر أن يجمع بنفسه خبرات عديدة من ممارساته وتلك الخبطات والضربات والمشاكل التى وقع ضحيتها فى البدايات البراقة مع السوق حتى حفظ عن ظهر قلب آليات الحركة فيه. الآن وبعد سنوات قليلة وقد صار "رجل أعمال" بالمعنى المتداول والمتعارف عليه هذه الأيام ،وتحلق حوله بعض من أخوته فى الإسلام من أهل الخبرة فى التجارة والبزنسة..

احساسى بسائل الكيماوى بدأ يختزل معنى آخر بأن العالم مائع والدنيا شاحبة تشد تركيزى مع عاطف الذى كان قد أراد أن يخرجنى من الحالة ففتح موضوعات عدة..

حدثت نفسى بأن شيئا ما مطهرا وقامعا يدخل جسدى بغية الاجهاز علي المرض نهائيا، وعلىّ إذن تحمله بل والاحتفاء به.. فالكيماوى إذن أداة دفاع أساسية لابد من التعامل معها بكثير من الود لا السأم ...ارتحت للصيغة ورحنا نتبادل وعاطف أطراف الحديث.

كنت أراه دائما هو ومنال مثل أولادى. حين ولدا كنت فى سن الزواج والإنجاب بمعايير بيتنا فساعدت أمى فى تربيتهما. جاءا أيام الرغد والرفاهية فى فترة سفر أبى الى السعودية وحالة الصعود الاجتماعى وبمجرد عودته وكان مهزوما لأسباب نجهلها جميعا رأيته ومن دون أن يدرى يعمل على زرع عناصر كراهيتهما للتعليم والثقافة.

نجح مع عاطف لكنه فشل فشلا ذريعا مع منال التى عكفت على تربيتها وتعليمها وتثقيفها وكانت تتابعنى وتقلدنى وأنا أقرأ وأكتب...

كنت وعاطف أخوات عبر البطاقة الشخصية. كان شاردا طول الوقت مع أصدقائه وعالمه الذى يبتعد تماما عن عالمى..وحين قرر الزواج لم يستشر أحدا ولم يخطرنا إلا لنلعب دورنا كديكور اجتماعى.. فكانت زيجته التى أفرزت بنتا ذكية وجميلة وإبنا ذكيا وشرسا .. كائنات جميلة ومزعجة. ثم سرعان ما تصالحت معهما.

كان دائما مبتعدا لا يزورنى ولا يذهب معى إلى أى مكان لأننى غير محجبة وأكتب أدباً يرى أن أغلبه من خبرتى المستقاة ممن حولى وهو أحدهم، كما أننى غير متزوجة وأعيش وحدى فى مدينة بعيدة. وكلها من وجهة نظره تجعلنى فى عرفهم امرأة متمردة.

فجأة وجدت عاطف يسترسل فى سرد جوانب ملغومة من حياته .. حتى حكاية زواجه للمرة الثانية التى تناقلناها مثل سر لا يفشى .. الدين يمنحه الرخصة كاملة لتحسين شروط حياته العاطفية والجنسية.

حكى واسترسل وكانت تأخذنى منه نظرات النساء الممددات أمامى فى مشهد بائس.. وزجاجات المحلول تتدلى من حامل معدنى إلى جوار سرير كل واحدة.. اختلط اللون الأزرق باللون الابيض والساعة لا تتقدم كثيرا..والعريشية الشقراء الجميلة تناور عاطف بنظراتها رغبة فى الابتعاد عن وجه أختها المنكوبة فى ثديها..

تركته لها ونظرت فى الجريدة وراحا يتجاذبان أطراف الحديث..

بعد أن أغلقت الجريدة حاول أن يداعبنى.. أخبرنى أن العريشية الجميلة سألته:

ـ هى أمك؟.. فرد عليها
ـ أيوه.. ساعات يخلق من الفاسد عالم.
ابتسمت وسألته
ـ انت فاكر نفسك عالم عشان ملتحى ومتدين.. يابنى دى دلوقت.. بقت عدة شغل.. بزنس
ـ بزنس..بزنس..بس نعيش..
ـ فعلا .. المهم نعيش..

يسعى دائما لبهجة نفسه ويوصى أمى بأن تخفى عنى أخباره وحكايات الحب والزواج التى تنفرد على السنة أخوتى ثم تطويها الأيام وعدم امكانية تحقيقها. يخشى من أن يصير بطلا لقصصى.. هو صاحب الجملة الشهيرة التى يرددها أخوتى عنى.. "بتاخد الناس لحم وترميهم قصص.."

نظرت إليه وكأننى أستدعى لحظات كاشفة عما فعلته يوما وأرغمت بقية أشقائنا عليه..
حين رأيته ضحية لأبى جمعت أخوتى وطالبتهم بأن يتنازل كل منهم عن نصيبه فى نصف ورشة صغيرة أقامها أبى من أموال السعودية قبل تبديد أغلبها فى شركات توظيف الاموال ليتملكه عاطف وحده.

وبالفعل حدث ووافق أشقائى وامتلك عاطف وحده نصف الورشة ورأيت أن هذا تعويض عادل عما فعله أبى به حين ملأ روحه كراهية للتعليم فعزف عنه ولم يهتم بإحراز مؤهل عال، فى الوقت الذى كان الكل يجزم أن التعليم هو المرفأ والخلاص.

الغريب انه لم يأبه كثيرا بالعمل فى ورشة أبى وطار مثل طائر يبحث عن أجواء أخرى للطيران وانساق مع أقرانه فى التجارة. التجارة فى كل شىء.. فى الآلات والملابس والماكينات والأدوات المنزلية والكهربائية وقطع

الغيار . سافر أرمينيا وتركيا وسوريا وإيطاليا وغيرها وعاد يتعامل معنا باعتباره رجل أعمال فى طوره الثانى. لم نجلس مرة لنتبادل أطراف الحديث مثل اليوم. وحين أحرز مكانة ومالا رحت أحدثه فى ان يعيد لنا نصف الورشة فابتسم وقال ..

"أنسوا .. أمكم فى العش وألا طارت"..

بدا الحنان يطل من نظرات عينيه وهو ينحى مهامه الكثيرة جانبا ويتحرك معى فى كل الاتجاهات. يذهب معى للتحاليل وللغيار على الجرح ويشترى احتياجاتى ويذهب لاستكمال الأوراق من عملى. بدا عاطف حنونا ودافئا ومتفاعلا معى بشكل لم يصدقه أحد. صرت ادرك على نحو ما أننى أراه لأول مرة وقد حجبته عنى أفكار عجيبة عن الحجاب وعدمه والمرأة العورة التى لابد لها من الستر.. الآن صرت اجزم أننا صرنا أشقاء فعلا.

بدا ـ من أثر الكيماوى ـ أن كيمياء أخرى بدأت تفعل فعلها فى الجسم والروح . تنشر البرد زمهريرا، ومظاهرالعتمة والسكون وجسد غير قادر على الاسترخاء. كنت انظر وكأننى بعيون زجاجية تنفتح فقط على الأشياء والبشر بلا أدنى انسجام..

فرغت الزجاجة الثانية من الكيماوى ولم يفرغ عاطف من حكاياته فى عالم المال والنساء. .

مرثيـــة لصــــدر

وكأنى أنهض من فتحة فى أخر القبـر، أخـربش التـراب والأكفـان وجيرانــى مــن الجثــث وأخــرج للنهــار..أنظر مــن نافذتى المطلة على حديقة جميلة وأحمـد الله وأنـا أبـتهج بأننى مازلت فعلا على قيد الحياة.

فــى جلســة الكيمـاوى صـباح أمـس دخـل جســمى معركتـه الضارية مـع آثـار المحلـول المـزود بكـم هائـل مـن السموم. حقق جسمى انتصارا بعـد انهـاك وتقيحـات فـى الفم والشفاه والرغبة الدائمة والملحة فى التقيؤ، وفقـدان الشــهية مــع وصــية الطبيــب بأهميــة الطعــام وخاصــة

البروتينات أحد أهم "الميكانيزمات" الدفاعية.. صرت أتقبله كصيغة دفاعية ضد المرض...على الرغم من أن آثاره الجانبية أشرس من السرطان نفسه.

بدأ شعرى فى التساقط ووجهى فى الشحوب وغامت الرؤيا وسرحت درجات من الكآبة فى كيميا الدم والروح لكننى لم أستشعر أدنى رغبة فى الاستسلام ..صورتى فى المرايا تذكرنى بكائنات فضائية رأيتها فى فيلم أمريكى فخبأت مرايا البيت بملاءات ومفارش ورحت أتعامل مع صورتى التى ما زالت تحملها الذاكرة.. امرأة جميلة ومبتهجة لأنها ما زالت على قدر مسئوليتها، تجاه نفسها وتجاه الحياة وتعيش كإنسانة وككاتبة.. طريق لا يقبل الانحناء..

بعد أن تناولت قهوتى وطعام الافطار وتبعهما العلاج انتابتنى رغبة عارمة فى البكاء فى حضن أحد، لا أدرى لماذا تحدونى هذه الرغبة الآن.ربما يراها البعض انهيارا لكن الجميع يجزم أننى تصالبت فعلا منذ البداية.

عرفت أمى بما حدث على الرغم من إصرارى ألا تعرف. ربما فكر اخوتى فى اخلاء مسئوليتهم فأخبروها. فضلا أن لا أحد يتبقى من يومه وقت لرعايتى فلابد من تقديمها كبش فداء رغم كبر سنها وهى التى لا تستطع أن ترعى نفسها ..جاءت بوجه ممسوح من الملامح وجسد تقلص فى نصفه ووقفت تفتعل ابتسامة .. فافتعلت ضحكة وأخبرتها أن المسألة بسيطة للغاية وأننى أتلقى العلاج والحمد والشكر لله الذى "قدّر ولطف" وأننى سأتحمل قدرى..

ـ والحمد لله عندى صدر ثان..

ابتسمت أمى أو هكذا بدت ، ثم وكأنها لم تحتمل كادت تسقط على الأرض وانفجرت فى بكاء شديد. أخذتها فى حضنى وربتت علي ظهرها ..ثم سرعان ما نزعت

نفسى من حضنها فمازال الجرح طريا والألم ضاغطا بين ثنايا العظام والروح..

هدأت من روعها ورحت أمازحها وأمتص ملح الغضب فى عيونها وروحها.. أزعم أن أمى "تربية يدى".. منذ وعيت مبكرا على عناصر الظلم والقهر فى بيتنا، أرسى قواعده أبى وجدتى حتى بذوره أخوتى الذكور، فكان لابد من سبيل للمقاومة.. فعرفت القراءة والكتابة أحد أدوات المقاومة وأنا أعاهد نفسى على تفادى ميراث أمى من الاستسلام والإذعان. على مدى عشرين عاما حررت نفسى حقا بالقراءة والكتابة ، لكنها لم تصلح كأدوات لتحرير أمى من أبى.. ظلت فى بيته حتى بعد أن غادرته لأسكن بعيدا وكان قرارا صادما للجميع، لكننى ظللت أحررها عن بعد ..كنت أتعامل معها كطفلة كبيرة أساندها وأنا أرى أبى مازال يمارس عليها سطوته وقد تجاوزت السبعين..

كنت أطلبها فى التليفون كل صباح وأدعها تحكى وتحكى لتنزاح كل غيمات النفس والروح وفاتورة التليفون تأتينى كل ثلاثة أشهر بمبلغ مفجع، فأمى حكاءة من طراز فريد ودائما فى جعبتها حكايات ساخرة ومؤلمة وموجعة وكان زوجى يجزم لى بأن أمى هى "المبدعة" وأنا أنقل عنها وكنت أضحك وأوافقه..

كانت تسرد حكايات قهر أبى لها وأن المسلسل لم ينته بعد.. وأنا أخفف عنها بأنها ليست نهاية العالم لو صار لديها مرض ثالث،وعليها إذن أن تتعامل مع أبى باعتباره هكذا وتروضه كما روضت السكر والضغط من قبل.

كانت تضحك ثم تنهض لتفرد السجادة وتدخل فى الصلاة.. وحين تختم الصلاة تظل تدعو لى بأن "يفتح الله لى بابا ما عليه بواب ويجعل فى لسانى سكرة وفى

وجهى جوهرة ويرزقنى بـ سـرة البخيـل".. كنـت أضـحك وأنا أقول لها..
" ركزى والنبى على سرة البخيل "

أعلم أننـى حـين أغـادر بيـت أمـى سـتبدأ يومهـا مثـل فراشـة.. تحتفى بالحياة وتغدق على جاراتهـا مـن بهجتهـا الدائمة وتتابع ماتشات الكورة ونشرات أخبار العالم وتبكـى للذى يحدث فى العراق.. ثم تتوقف لتسألنى:
ـ أخبار سليم إيه..
ـ كويس..
ـ بيكلمك
ـ لأ..
ـ أمال عرفتى منين انه كويس
ـ طالما ماعنديش خبر سىء يبقى كويس..
ـ تفتكرى عرف اللى حصل
ـ أو ما يعرفش.. مش فارقة معايا..
ثـم ترثـى لمـا يحـدث فـى فلسـطين وهـى تسـبح بمسبحتها..
ـ أخبار نادية الفلسطينية ايه؟
ـ اتقبض عليها وهى داخلة حيفا تعزى فى أختها اللى عذبت وماتت فى السجون الاسرائيلية ...

ثم تواصل أمى رثائها لما يحدث فى العالم مـن كـوارث ونكبات ثم تعرى رأسـها ويفـاجئنى شـعرها الأبـيض الـذى تخفيه دائمـا تحـت طرحتهـا البيضـاء وتـدعو علـى الـرئيس بوش وشارون.

حـين جـاءت لتقـيم معـى بعـد إجـراء الجراحـة وبدايـة العلاج الكيماوى.. كانت تؤذى مشـاعرى بنظـرات الحسـرة والشـفقة وأنـا مسـتلقية فـى فراشـى خـائرة القـوى .. أتعامل مع كل أشكال الوهن والألـم علـى إنهـا اجـراءات أو مراحل قصيرة وسوف تنقضى....

كنت أفر من نظراتها وأمسك بالـ "ريموت كونترول" وأحرك العالم بين يدى فأرى الدنيا على قنوات الديش تتقلب ما بين الدم والعنف والقتل والتفجيرات والزلازل والسيول والتعذيب فى السجون هنا وهناك، ثم أركز مع سينما جميلة عربية وغربية ومناقشات حول كتب جديدة وقد أفقدنى المرض القدرة على التركيز فأركز مع المتعة البصرية.. وبعض حلقات من الدراما وبرامج "التووك شو" على الرغم ما تحويه من أوهام وأكاذيب..حيث السطوة دائما لصاحب الصوت الأعلى وقدرة الحواة والدجالين على المراوغة والمناورة فى طرح الأفكار واللعب على تناقضات الناس ومشاعرهم الدينية..

ضبطت أمى أكثر من مرة متلبسة بإفشاء سر آلامى لأختى، وحالة اليقظة التى يبعثها الكيماوى فى نفسى وعقلى فأظل طول الليل والنهار بلا نوم أوقدرة على حتى القراءة. كنت أغافلها وأفتح الكمبيوتر وكأننى أفتح عقلى لأطمئن على ما به رغم الجراحة والألم والكيماوى.. بعد وقت تكشف لى أننى أصبح قوية حين أكون وحيدة، فما أن نوهت أمى إلى أنها ستذهب لتأتى بعلاجها وبعض الأشياء من بيتها فى العباسية حتى وافقتها.

وأنا وحدى بلا بشر تحاصرنى عيونهم بالشفقة، يصبح بمقدورى استنفار كل قوى النهوض والمقاومة فأنهض عن فراشى وأرتب غرفتى وأنظف المطبخ وأعد وجبة ساخنة وأشرب كما هائلا من الماء.. قرأت أنه يخلص الجسم من الرواسب السامة للكيماوى والتى يسبب بقاؤها منتهى الإيذاء للكبد والكلى.. أو أجلس فى الشرفة لأتابع كما هائلا من العصافير وحركة البشر، أو أجلس أمام الكمبيوتر وأنقح أحد النصوص أو أكتب عن كتاب قرأته أو أكتب تأملاتى لإحدى الظواهر وأرسل كل هذا للنشر. حين أرى إسمى مطبوعا على الورق فى جريدة أو مجلة أتأكد أننى

مازلت على قيد الحياة وبداخلها وفى قلبها وبين ثناياها وطياتها وجنباتها الجميلة، ربما لأنني اختزلت وجودي كله في الكتابة والإبداع.

صرت أتعامل مع صحتى كالسيارة القديمة المتهالكة التى قد تستطيع أن تصلح أعطالها وتجوب بها العالم بينما آخرون لديهم سيارات جديدة وكبيرة ، يركنونها أمام بيوتهم ويعيشون فى اكتئاب مزمن وتنهشك عيونهم حسدا لانك تملا الدنيا حركة وبهجة. صار معيار الصحة والحياة لدى هو كم ما أحققه بهذا القدر من الصحة حتى مع المرض.

فى أعتى درجات الألم وانهيار الجسم لم أسقط أو أنهار ولم أبك حتى حين صرخت أختى الصغيرة فى وجهى تحثنى على البكاء والانهيار كما تفعل أية امرأة فى مثل هذه الحالة..

اليوم واليوم فقط تحدوني الحاجة للبكاء فى حضن أحد..

فكرت أن أحدث إحدى صديقاتى اللائى أثق فيهن لأرتمى فى حضنها وأبكى..

اتصلت بشوقية الكردى وأخبرتها عن حاجتى لحضن أبكى فيه قالت لي بطريقتها المعهودة..

ـ يا جميل احنا نجوزك راجل جميل وتعيط ف حضنه.

تذكرت صديقى الجميل والذى اختفى لأسباب تخصه، حين سمع بأزمتى. كانت أمنية عمره أن يبكى على صدر امرأة يحبها.. بعدها راح يتزوج وينجب ويروج ـ فى الخباثة ـ أن الزواج ما هو إلا إراحة عضو على حساب بقية الأعضاء. بعدها طلق زوجته لسبب بسيط ـ هكذا أجزم لى ـ أنه أبدا لم يستطع أن يبكى على صدرها.

أخبرته وأنا أضحك أن أهم أسباب الزواج فى المرحلة القادمة التى حتما ستبكى كل الرجال لأن النساء بكين من قبل بما يكفى، هو أن يكون للمرأة صدر "فول أوبشن"

يبكى عليه الرجل ...أحمد الله أنه تم استثنائى على نحـو وآخر..

فى ذلك النهار لم أجد أحدا أبكى علـى صـدره فبكيـت على صدرى ...

ولد بعربة وحمارين

اليوم أجازة من جلسـات الإشـعاعى، والنهـار مثـل أى نهار لا يحتمل أكثر من فنجان قهوة فى شرفة تطـل بتـرف غير مسبوق على حديقة غناء، تشبه حدائق حكايات ألـف ليلة وليلة، أما السماء ففى حالة تواطؤ مع شـىء مـا فـى نفسـى لكى يمر اليـوم بسـلام وكفـى. صـرت اتعامـل مـع الحياة ضمن وحدات زمنيـة صغيرة لا يتعدى زمـن الوحـدة اليوم الواحد. هـدوء ونـوم وطعـام بسـيط وقـدر مـن الهـواء النظيف وكثير من الأفكار.. قراءة أو كتابة أو تلقى محادثـات تليفونية من الاهل والاصدقاء..حالة مـن الـود البسـيط مـع حياة غير قابلة للقسمة على إثنين..

والأحـداث علـى شاشـة التليفزيـون علـى حالهـا مـن العنـف والقتـل والضـرب المـنظم مـن جنـود الاحـتلال فـى فلسـطين والعـراق. لـم أعـد أسـتطيع التفرقـة بينهمـا. سأسـتثنى كـل أشـكال الحسـرة والأسـى علـى عمـر

يستنزف سريعا بين أشكال صراع ضارى، تتبدل أرديته وأثماله بين أبيض وأسود وبال وسيكام.

السيد الطويل رجل الأمن الذى يجلس فى مقدمة الحديقة ووجهه على الشارع لا يحرس شيئا.. المربع السكنى ليس فى حاجة ماسة إليه فأغلب مالكى الشقق فى غيبة كاملة عنها، هو يحرس فقط المقتنيات. أوهم نفسه بأن الجلوس فى مقدمة الحديقة يجعل المربع السكنى كاملا تحت السيطرة. طوله الفارع وسمرته الداكنة يذكرنى بعفريت مصباح علاء الدين. ربما يمنى نفسه بمصباح آخر غير هذا المضاء بنهار فاقع يغريه دائما بألا يبذل جهدا لمتابعة ما خلفه.

أشك أن الكهرباء تصل مسئول الأمن وأدواره العليا. منطقة المخ منطقة غير آهلة بشىء له قيمة سوى التفكير فى مرتب الشهر ليرسله لأمه أو زوجته فى الفيوم.. أعطانى "مرعى السباك" فكرة كافية عن شكل الحياه في غرفة ينام فيها أكثر من عشرين شاب.. وعلى عقلى أن يبذل جهدا مضاعفا ليأتي بما تبقى من صور ونيجاتيف وعفاريت..جاءني أكثر من مرة لإصلاح ما تركه مالك الشقة من أعطال في السباكة والكهرباء. بدا شخص مريح على نحو ما، لا يرسل بنظرات خارج إطار ما يعمل، ثم يترك المسألة المادية دائما لتقديرى الشخصى. يذكرنى فى معطفه الكاكى بمخبر الأفلام البوليسية .

الشارع العمومي يهدأ نسبيا بحركة دائبة لعجلات ناقلات وشاحنات ضخمة تتحرك صباحا ومساء وعصرا وظهرا وليلا وقريبا من الفجر. الطريق أمام البيت مفتوح في آخره على الطريق الصحراوي السريع للأسكندرية أو مرسى مطروح أو ليبيا. والشاحنات مثل عمارات ضخمة تسيرعلى الأسفلت.

اليوم هو الجمعة وهو الوحيد الذى تهدأ فيه دماغى من ضجيج الشارع ..مشهد سيارة ضخمة تحمل خلاط

رمل مرعب أو "عجانة" بحجم عمارة يعد مشهدا عاديا. أحيانا أشفق على ساكنى الطوابق السفلى، كما أشفق على المارة والسائرين والسيارات المركونة على الجانبين.

يراوحنى احساس بأننى أتحرك فى المدينة باعتبارها منفى .. أو سجن مفتوح غير قابل لتدخل السجانين، يتركونك لعوامل البيئة تقمعك وتسحقك وتحولك إلى تفصيلة صغيرة من تفاصيل المكان، أو تدعك لتأكل نفسك بنفسك..

فنجان القهوة فى الصباح بمقدوره أن يختزل مراحل كثيرة من الحلم بعالم آخر.. تعبت من الترحال إلى مدن هادئة ثم سرعان ما تغزوها عناصر القبح والضجيج والعنف.

النهار تستبيح بكارته سيارات الميكروباص المتجهة إلى القاهرة، فضلا عن سيارات الكارو وحميرها والبحث عن علب الصفيح والكرتون وبعض نفايات خاصة لسكان المدينة فى سلال القمامة الحديدية..

حتى الجرائد التى لا تصل إلا نادرا لا تفصح عن شىء جاد آو جديد.. كلها مثل بعضها.. ولا من جديد. كلها مستهلك ومعلن وراقص ولاعب و زائف ومروج ومروض ومسطح ومشوش وغير سار وغير مبهج. ينفيك ويبعدك ويهمشك ويوخزك ويوجعك ويسجنك ويحاصرك، وكله سواء. حتى التليفون الذى غامرت فى دفع قيمته سريعا من أجل الكمبيوتر والنت والفاكسات والإميلات كشكل حمائى من عناصر الملل والضجر والعزلة، ليس بعيدا عن الطرق السرية للحزن والسأم.

الشاحنات الضخمة تنقل منتجات ألبان وألمونيا وبلاستسيك وبسكويت ورقائق بطاطس بطعم الجبنة وطعم الشطة والليمون والكباب وغيره..يختزل نهار المدينة عناصر انهيار الاقتصاد القومى..

القادمون عبر التليفون يصدرون نفس عناصر الضجر والسأم الخاصة بهم، أو يرغبون فى الوقوف على آخر آلامى ومراراتى ربما للبحث عن مثير ولو صغير لفعل شىء مغاير يحفزهم على كسر جوانب الشرنقة..

باستثناء صوت أمى وصوت اختى لا يحدثنى أحد يعيد إلى ثقتى فى النهار أو حتى فى الليل.. حتى بناتها الصغيرات اللائى صرت أراهن ثلاث مؤامرات صغيرة على العقل والروح والقلب، لكنهن أحيانا يصبحن قادرات على إنتاج الضحك والصخب والبهجة حين ياتين إلى المدينة.

وجه الولد راكب العربة الكارو وهو يفتش فى صفائح القمامة الحديدية والمثبتة فى أعمدة الكهرباء يتوخى الحيطة والحذر. ترك العربة فى منتصف الشارع غير عابىء بالحمارين من سيارة مسرعة وقفز داخل صندوق القمامة. وسريعا عبر الشارع وركب العربة وقاد الحمارين وهو يطلق أغنية وصفارة وكأنه يستفز صمت المكان وسكونه..بحث بعينيه عن بشر فى المدينة التى تبدو خاوية على عروشها فلم يجد، الامر الذى اغراه بمزيد من الأغنيات والصفير المنغم.

راق لى المشهد فرحت اتابع الوهج الجميل فى صباح يعلن عن اختلافه الواضح بولد ريفى وعربة كارو بحمارين وبعض الاغانى والصفارات.

وفى لحظة رأيت رجل الامن ـ عفريت المصباح ـ ينقض على الولد ويقبض عليه وينهال عليه صفعات وركلات ولكمات وكأنه أحد جنود الاحتلال الذين نراهم فى العراق وفى فلسطين على شاشات التليفزيون، والولد يصرخ ويبكى ومن بين فراغات غير منظورة على الاطلاق يخرج بشر قليلون فى محاولة لتخليص الولد من قبضة رجل الأمن الطويل عفريت العلبة أو عفريت المصباح.

لم أشعر إلا وأنا أضع نفسى فى أى ثياب وأهرول على السلالم لأخلص الولد من قبضة العفريت.

بدا صوتى محبوسا إلا أنه ناهض ليخرج ويصرخ فى رجل الأمن الذى يقدم لى التحيات كلما مررت أمامه وتعد له أمى كوب الشاى مع ساندويتش. حذرته من استمرار قبضة يده على الولد وتشبثت بالولد لأخلصه وظهر رجل نحيل بملامح طيبة. هو الآخر انحاز لفكرة ضرورة تخليص

الولد من فك العفريت..كان منطق العفريت غريبا ومتحايلا بأنه رأى نفس الولد ليلة أمس وهو يسرق بابا زجاجيا من أبواب العمارات. الدموع الساخنة للولد تتوسل لى وللرجل النحيل. كنت أبدو للآخرين شديدة الإصرار على تخليص الولد من مخلب رجل الامن على الرغم من شدة الانفعال التى سحبت صوتى وأجرت بعض وأنا أجتهد لإخفاء كل هذا.

هددت رجل الأمن بأننى كاتبة ولن أقبل إلا بتخليص الولد. والعفريت يصر على القبض على الولد وإيداعه زنزانة بشركة الأمن الخاصة لتى تحرس المدينة. كنت أدرك على نحو ما أن الولد سوف يلبس قضية سرقة أحد أبواب العمارات التى سرقها آخرون ربما يعرفهم جيدا رجل الامن ويرغب فى تسديد خاناته الفارغة.ودموع الولد تسبق كلماته التى تؤكد أنه لتوه قادم من الفيوم وأنه بعد هذه الواقعة سوف يذهب الى بلده ولن يعود..

أخيرا استقر الرأى على الذهاب به إلى مكتب الأمن الذى يبعد مسافة كبيرة عن طريق بيتى .. سرنا جميعا وكان الولد مصرا على التشبث بالعربة والحمارين، نفس حرص العفريب على أنها إحدى أدوات الجريمة وليست مجرد أدواتة لأكل العيش.

سرنا جميعا وداهمنى شعور بأننى ورطت نفسى مع حفنة من الذئاب البشرية الذين يعيشون تداعيات فقر وغباء وعته ، يرونها الحكمة العظيمة والرائعة.. ان لم تكن ذئبا اكلتك الذئاب.. فقرر كل خروف أو ديك أو حتى كتكوت أن يكون ذئبا على الآخرين خاصة الأشد بؤسا وضعفا وأقل قيمة وقامة عنه..

ما هذا الاستعلاء الذى تبلوره نظرة فوقية.. أنت تتحدثين وأنت تطلين من برج عاجى...كم هائل من التناقضات تدفعنا دفعا فى مفرمة الحياة ولو كنت هكذا لما كنت الآن أسير إلى جوار رجل أمن بائس وولد ريفى صغير

يتشبث بعربة كارو وحمارين وبعض النفر الذين أشفقوا على الولد مثلى وقد يتراجعون إذا ما طال بنا الطريق..

بدا أننا كلما أوغلنا فى الطريق إلى مكتب شركة الامن الخاصة تتكشف لنا تلك المساحات الممتدة بعمارات واقفة مثل جنود فى معركة وهمية.. كلها فارغة على نحو وآخر أغلب الشقق والعمارات مغلقة على الفراغ والغبار والصمت..

كان الولد يبكى مقدما مبرراته والتى يجدها عفريت المصباح واهية على نحو كبير، وأنه هو وحده صاحب الحقيقة المطلقة مثلما توهم ذلك فى استعمال سلطته مع الولد والحمارين.. حكى الولد كلاما يقوله الكبار والصغار. أنه والده سافر العراق منذ سنوات ولم يعد وهو الذى يعول أمه واخوته وقد جاء وحده الى المدينة لكنه وفقا لما حدث سيغادره فجر اليوم وربما الآن مباشضرة حين ينجو بالعربة والحمارين، فهما عهدة المعلمة التى تبيته مع أربعين طفل مثله فى شقة من شقق الإثنى عشر .

عفريت المصباح هو أيضا مقهور ويعيد انتاج قهره فى علاقته بما هم دونه وهذا يتأتى تحديدا ما بين الثامنة صباحا والثامنة مساء وما بعد ذلك ينزع ثيابه ويتحول ـ ربما ـ إلى مخبر فى مكان آخر أو خادم يؤدى خدمات جليلة لبعض الساكنين الذين يتعاملون مع المكان كجرسونيرة ليناولهم الطلبات من بيرة لـ "مزة " للحم مشوى أو سمك مقلى من المولات التى انتشرت على جانبى المدينة.أو تجده وقد تخفف من ثيابه وراح يغسل سجادة أحد السكان بخرطوم الحديقة.

كل هؤلاء من الفيوم..أقرب محافظة لأكتوبر.. الطلبة والعمال والعاطلين وسائقى الميكروباصات والتوكتوك والنصف نقل وأطفال صغار يعملون فى النظافة والبحث فى سلال القمامة عن أشياء بعينها..جميعهم يأتون كل بحفنة

أحـلام وأوهـام. الجـانى والضـحية.. الـذئاب والنعـاج.. ثـم تتحـرك التـداعيات ليحـدد كـل مـنهم موقعـه فـى المدينـة حسب قدراته..

صوت شاحنات كبيرة مثل عمارات ضخمة تسـير علـى الارض، تنقــل منتجــات ألبــان وألمونيــا وبلاســتســيك وبسكويت ورقـائق بطـاطس بطعـم الجبنـة وطعـم الشـطة والليمون والكباب وغيره..تختـزل نهـار المدينـة وترجهـا رجـا وتفتت الصمت أشلاءً على طريق الاسفلت.

فى صباح اليوم التالى رأيت نفس الولـد يسـير راكبـا العربة بالحمـارين ويطلـق صـفاراته الغنائيـة ويصـوب عينيـه على سلة القمامة المعلقة على أول الحديقة.

يوم مغاير ....

سأحاول اليوم أن أتعامل مع نفسى على أنى امرأة سليمة، عفية نضرة، طيبة وشريرة متسامحة وغبية عدا بعض الذكاء.. لا تحمل أى مرض كما لا تحمل أى تميز عن بقية النساء..مفعمة بروح المرح والكآبة أحيانا.....

سأعد اليوم "هدنة" بعد "المعركة" التى دخلتها مرغمة دون اختيار ونتج عنها تشوه فى الجسد وكسور ورضوض فى الروح والنفس وربما فى العقل.... ليس لأننى ضعيفة ولكن لغياب بعض الصديقات والأصدقاء الذين كنت أراهن بهم على المستقبل، بدا غيابهم بمثابة قطع متعسف فى مشهد سينمائى رومانسى منساب فى

اتجاه رقيق وناعم فراشات وزهور. لكن القلة التى راحت تتكاثر شيئا فشيئا ساندتنى عبر كتابة وزيارات وتليفونات ، عمقت فى داخلى ارادة الحياة ، هذا غير ما طفرت به الأرض بشكل سحرى بوجوه جميلة دفأت حياتى وأعانتنى كثيرا على أنجز محاولتي الدائبة للخروج من بين مخالب الوحش.. أغلبهم أخوة وأشقاء عالم الإبداع والإعلام والفكر والثقافة.. هذا العالم الذى دخلته باختيارى فى بداية الثمانينات من القرن الماضى وتكشف لى أنهم صلة القرابة الحقيقية، وأننى فرد فى قبيلة مترامية الأطراف..

لن أراهن على الذين يرغبون فى أن يدخلونى فى متاهاتهم.. سأراهن على كائنات أخرى مثل الأشجار والأنهار والقطط والعصافير والنباتات.

سأتعايش مع خوفى عله يخمد ويترك لى مساحة من التنفس،لأستيقظ فى أى صباح لأفتح شيش نافذتى وأردد فى نفسى...." ..الله .. مازلت أحيا..

" الحياة جميلة وأنا متشبثة بها ولابد أن نناضل من أجلها.."

حين سمع أحد الأطباء وهو يمعن فى قراءة أحدى الآشعات هذه الجملة نظر إلىّ بعيون جامدة ولسان حاله يقول..

ـ اذا كان أنا ـ يفرط فى إبداء سلطة الأطباء ـ موش متشبث بها..

سأفتح النت وأدخل على جريدة الحياة وأجمع كمية مقالات للكتاب الذين أحبهم و"أسيفها" توطئة لقراءتها فيما بعد.. رئة أخرى للتنفس ..

نزلت فى السابعة صباحا وسرت وسط مربع الحدائق المحدودة بين العمارات وكأنى أسير فى مصنع أوكسجين.. خذلنى على نحو ما علم الأطباء فصرت أقاوم

"الخبيث" بالأوكسجين ورياضة التنفس الصباحية كما أقاومه بالغذاء والماء والشاى الأخضر رغم ميوعة طعمه وكذلك البردقوش وحرفة طعم الثوم والبصل وحريفة الكارى والكركم والقرفة والحلبة والبقدونس والسمك وبهجة الجزر والخس وتأمل عصافير الصباح التى تحط فى شرفتى ثم تتقرب لى وتدخل البيت وأحسها مثل جيران جدد..

أسير لمدة نصف ساعة غير منقوصة. أحرق كما هائلا من التوتر الذى صار قانونا للحياة..

سأصعد شقتى لأغسل المواعين وأنظف المطبخ وأعد وجبة ساخنة.. وأقرأ وأكتب وأتأمل الحديقة الغناء التى أطل عليها وتستفزنى صديقة لى فى كل مكالمة لأترك هذا الجمال - ليسهل عليها زيارتى - وأعود إلى القاهرة حيث العادم والتلوث السمعى والبصرى والضجيج ، لأن أصدقائى وهم فى طريقهم كل صباح لتحقيق طموحهم المهنى والاجتماعى والثقافى سوف يصير بمقدورهم السؤال عنى..

يخطر لى أن أتساءل وأنا أعد الوجبة سهلة الاعداد .. عملا بكلمة د. عمر حلمى طبيب الكبد .. "الطعام الذى يسهل اعداده يسهل هضمه .." أغلب الأطباء غير مثقفين، يرضعون الطب فى سرنجة معدنية، مجرد تقنيات حديثة منزوعة من كل ما هو شخصى وانسانى.. كل المرضى أمامهم لحم معطوب.. مع ان كل جسم وله قانونه الخاص. ينبهنى يوسف غطاس أننا عالم ثالث.

متى أكف عن كل هذه المهاترات لأصل لقدر ولو ضئيل من الهدوء ؟.... مازلت أشعر أن حياتى مدى فسيح تتنازع فيه الرياح والغبار على رؤوس الأشجار.

أفتح شيش نافذتى على مساحة من الخضرة تعتنى بها نانسى الفلسطينية تلك الفلسطينية الجميلة والملتاثة والمهووسة بنفسها.. لم تكلفنى عناءً لأكرهها، يكفى فقط أن تسب عامل الحديقة أو موظف الأمن وتهدده فى رزقه ورزق أولاده لتستنفر فى نفسى طاقة

كراهية وعداء.. قال لى الجناينى الصغير حسن وقد قطف لى بعض الزهور ..

ـ والنبى ياست كلميلى الولية دى.. أحسن ح تجطع عيشى.. ما جدرتش على اسرائيل ..جاية تجدر علينا..

لعبت نانسى بمهارة على انشغال المصريين بحياتهم الشخصية عن رعاية الجمال، كل لا يعنيه خارج حدود شقته، وهى الوحيدة التى تتصدى لرعاية الحديقة، ليس لعشقها للجمال، ـ من يعشق الجمال تمتلىء روحه حنانا على البشرـ لكن من أجل خلق وهم سلطة الوطن المفقود، وربما تنكيلا بمن له وطن، بنفس زعمها الباطل وقبض الريح أنها زوجة لمسئول أمنى كبير.

أعددت فنجانا من القهوة ... منعنى الطبيب من كل الأطعمة اللذيذة والمشروبات التى كنت قد أدمنتها مثل عصير البرتقال والجريب فروت والشاى والقهوة. أخبرنى أن السرطان الذى يسكن جسدى لا يجب أن أحقق له مزيد من الترف والرفاهية ..عناصر كافية وبيئة مناسبة لأن يبقى ويستقر ويتكاثر..ظللت أعمل بتحذيراته من أكل اللحم والفواكه ومنتجات الألبان والأجبان، لكننى وبعد وقت رأيت أن المسألة زادتنى كآبة وأن خلايا جسدى نفسها لها ذاكرة مع الطعام الذى تعرفه..اكتشفت أيضا أننى لكى أحافظ على الحياة لابد أن ألغى الحياة..

بعيدا عن حالة التسامى التى أتمثلها دائما سأمارس اليوم قلقا عاديا مثل كل انسان بتر جزء حيوى من جسده.. الحياة تفلت من بين يدى امرأة فى منتصف العمر، والزمن والتاريخ والطبيعة والموروث مازالت كلها تركز عليها كقطعة لحم يأكلها رجل ويمسح فمه بورقة كلينيكس..

سأحدث يوسف غطاس فى التليفون وأسأله عن أمه وأمر عليها بالسيارة لنشترى احتياجاتنا من سوق السادس. بعيدا عن سوق السابع الذى يتعامل مع الناس

معاملة السائحين، عرب وأجانب انتشروا فى المدينة لانتشار الكليات والمعاهد الخاصة والمصانع.. ثم أعود وأجلس إليه لأسمع حكاياته التى لا تفرغ.. قالت أم يوسف ذات مرة : منهم لله ..غلوا علينا الهوا...

يدرك يوسف على نحو ما أننى أرغب فى سماع حكاياته التى يسر لى بها .. نوهت أمه أكثر من مرة على ضرورة أن أحفزه على الزواج..أشياء كثيرة لم يحدثنى عنها.. حدثت صديقتى المسيحية لأفاتحها فى الزواج منه فأخبرتنى أنها خطبت..

اليوم ايضا سأقاطع التليفزيون .. نشرات الأخبار تصدر لى كآبة منقطعة النظير عبر حلقات العنف الدائر فى فلسطين والعراق وسجن أبو غريب وسجن جوانتامو ..أفلام رعب "لايف" يومية تكرس لقمع الناس ليختفوا حتى فى جلدهم....

سأقاطع أيضا تشانل تو للأفلام.. أنفق وقتا وجهدا لأحظى بفيلم غير أفلام الحروب والآكشن والرعب والفزع وثراء التفاهة والرفاهية المفرطة التى تصيب بشر العالم الثالث بالقهر .بدا أنهم يفعلون كل شيء وليس لنا إلا الفرجة، صرنا مجتمعات ، هم ينتجون الأطعمة لنأكل، ينتجون الثياب لنلبس، ونحن مجرد مستهلكين نتفرج عليهم وهم يأكلون ويعيشون رفاهية لذيذة،ويحبون ويرقصون ويتزوجون ويمارسون الجنس بينما نجلس لنتفرج فقط..

سأجمع صورى وصور العائلة وشهادات التخرج وشهادات التقدير وأعلقها على جدران الحمام نكاية فى حياة سقيمة،عشتها تحت أمل أن تكون لها معنى..

سأحدث أمى التى تحسب على الملائكة أكثر منها على البشر علها تكون قد استيقظت مبكرا. حين أعود

إلى البيت سأشرب شايا أخضر ..فى "مج" كبير .. حجم عائلى وأكون قد جمعت بعض الأزهار والورود من الحديقة المقابلة للبيت وأضعها فى زهرية زجاجية ترينى الماء والجذور وهى تنبت.

سأدع الكاسيت يعمل بموسيقى راقصة سأنهض لأرقص لأرى جسدى طيعا دون وجع أو ألم،رغم أنف المرض ..الرقص يمنح الجسم بهجة غير عادية. لم أسمع مرة عن راقصة مرضت بمرض خطير.. كآبة الروح يدفع عنها الجسد الفواتير كاملة ..

تأتى الموسيقى الكلاسيك.. الناى السحرى لموتسارت.. شجن يأخذنى لاستحلاب بهجة مفقودة، وأنا أرقص رقصا يشبه الباليه فأجوب أرجاء البيت ..بهجة تتسع بى كدوامات بحر ..

صرت أعد اليوم الواحد خلية حية، أو وحدة زمنية لحياة كاملة ليس موصولا بما قبله ولا مقطوعا عما بعده .. أرى فيه كل الأزمنة وكل الفصول. الشتاء والصيف والربيع والخريف وأعيش كل الحالات.. البهجة والحزن والفرح والبكاء من شدة الألم.. أرى المخلصين والشرفاء كما أرى الغادرين والخونة والفاسدين، فى الوقت الذى أدرك على نحو ما أن الألم يخجل ويتوارى من مقاومتى وصمودى فأجلس لأكتب أو أقرأ أو أحدث أصدقائى وصديقاتى فى التليفون ونضحك ونحكى ونشكو ونبكى ونعرف ونسخر ونرثى أو نبارك. أدرك أن هذا المرض يخشى الحب، فيفر حين يجدنى محاطة بحب الأصدقاء ورعايتهم.

يواتينى صوت أمى فى التليفون أن أختى تشاجرت مع زوجها كما تواتينى ثورة إحدى صديقاتى أن زوجها لا يسمعها "كلام حب" .. تكاد مرارتى تفقع هى الأخرى لتضاف لكم الأعضاء التى تعطلت وأحاول إصلاحها.. هموم

أختـي وصـديقاتي تـرف لا أسـتطيعه..لم يعـد لـدى أدنـى طاقة تبذل للتهدئة بأن هذه المشاجرات هي العادم الـذي لابـد أن تـتخلص منـه العلاقـة الزوجيـة مـن وقـت لآخـر.. لا تفهم أمي وربما تفهم صديقتي وتدعى العكـس .. أشـرح لهن أن السيارة وهى تسير تخرج العادم الناتج عـن حـرق الموتور للطاقة .. بدهيات يفتقدن القدرة على فهمها..

فى الجريدة حادثة لرجل فى أبو مزار دخـل بيتـا فـى الليل وذبح أربعة من أهلـه ومثـل بجثـثهم وقطـع أعضـائهم التناسلية.. وجدت ملقاة ومتناثرة على الأرض..

سـأنزل اليـوم لإصـلاح شـاكمان سـيارتى "فلـة".. سـأذهب مباشـرة للمصـنع فـى المنطقـة الصـناعية.. الميكانيكيون فى أكتوبر مجرد صبية يستكملون الخبرة من العمل في سيارات النـاس .. سـرت وراء الأسـهم.. مطـابع الأهرام ثم الأخبـار ثـم يسـارا مصـنع الشـاكمانات.. مصـنع فخم كأنه قلعة تحيطها الأشجار والأسوار الحديدية من كل جانب.. فتح حارس الأمن البوابة لسيارتى وقابلنى المـدير المسـئول ليتـولى المهمة..أجلسـنى فـى صـالون كبيـر وطلـب لـى شـايا ثـم خفـض صـوته وهـو يسـألنى وينظـر للسيارة..

ـ تبيعيها؟

بدا منسحبا ومهزوما ومتراجعـا وهـو يحـاول أن يأخـذ إجابتى، ليس على محمل الجد.

جلست أقرأ كتابا أحرص على وضعه فى حقيبة يدى، عـن مقاومـة السـرطان بالتغذية..أصـدرته مؤسسـة سبيروس قسطنطين موروس وهى مؤسسة خيرية تهدف إلـى خدمـة مرضـى السـرطان عـن طريـق أنشـطة بحثيـة ونقل الخبرات والمعلومـات فـى مجـالات التغذيـة الطبيعيـة والزراعـة العضـوية. أسسـها سـبيروس قسـطنطين وهـو مصـرى الجنسـية يونـانى الأصـل، بـدأ حياتـه فـى صـناعة الغـراء والبلاسـتيك وحقـق نجاحـا مبهـرا علـى المسـتوى المحلى والعالمى وأصبح مصنعه أكبر مصانع الأكريليك فى

الشرق الاوسط، عشـق الطبيعـة وحـين هاجمـه سـرطان الجلـد ظـل يبحـث فيهـا عـن العـلاج المناسـب مسترشـدا بأفضل ما نشر من أبحاث فى مجال الطب والطـب البـديل وكله أمل وثقة أن الله سيساعده فى قهـر المـرض، حتـى حدث فأنشأ هذه المؤسسة من أموال مصانعه.

لاحظـت أن الشـاب الـذى أتـى لـى بالشـاى لا تبـدو عليـه سـمات "فـراش" مصـنع للشـاكمانات وضـجرت بعـد ساعة، والعمل لم يبدأ بعد في سـيارتي ، فتحركـت فـي اتجاه الحديقة من أجل كـم مـن الأوكسـيجين. لاحظـت أن نفـس الشـاب ينـزع عـن الأشـجار بعـض الأوراق الصـفراء فاقتربـت منـه وسـألته عـن معلوماتـه فـى الزراعـة، فـرد بتلقائية وكأنه فى حالة دفاع عن النفس..

ــ أنـا حاصـل علـى ليسـانس حقـوق ودبلـوم قـانون دولى..

سألته عن الشجرة التى ينزع عنهـا الأوراق اليابسـة قال..

ـ اسمها بنت القنصل

لـم أدهـش كثيـرا فأغلـب مـوظفي الأمـن والخـدمات والفنادق والكافيتريات والمولات فى المدينة مؤهلات عليا.. تعلموا فى الريف ونزحـوا للمدينـة بحثـا عـن عمـل.. خلـيج جديد وهجرة أخرى، لم أشأ أكمل سؤالي حتـى اسـتطرد فى يأس..

ــ طمـوحى إتقتـل ..لـى عشـر سـنوات مـع صـاحب المصنع وهو يريدنى فراش وجناينى وساعى وعامل..على فكرة صاحب المصنع بلدياتى..

بـدا لـى المصـنع مثـل سـجن قطـاع خـاص والشـعور بالسـأم مثـل غصـة أو شـوكة تقـف مستعرضـة فـى الحلق..أخيرا رفعوا السيارة وبدأوا في العمل بها.. كرهت احتيـاجى للمصـانع ـ السـجون ـ الصـغيرة والكبيـرة التـى انتشـرت مثل سرطان فى المدينـة يأكـل الأخضـر والأخضـر والاخضر..

دخل كم هائل من العصافير إلى البيت وراحت تتقـافز بين الزقزقة ونغمات الناى السحرى لموتسارت. ثم طفـرت فى رأسـى صورة ضرب العصافير بالبنادق أمام سـور حديقة الحيـوان بعـد ظهـور أنفلـونزا الطيـور. توجســت للحظـة ثـم اقتربت منها ولم تطر كعادتها فسعدت بـأن اليـوم حقـا يـوم مغاير وأننى امرأة مثل كل النسـاء .. طيبـة وشــريرة وقلقـة وهادئة وممرورة ومبتهجة.

أحـــــلام

لا أدرى ما الذى يحدث.. مضى شــهران علـى العمليـة ويتجدد الألم والوعكة بعد جلسة الكيماوى.. ومازلت أحاول أتجـاوز الألـم بـالقراءة ومشــاهدة الســينما وبـرامج التـوك شــو،والاقتراب مــن الأصـدقاء. يتلوهــا حالــة مــن الــوهن والهزال فأستسلم للنوم ربما يستعيد الجسد بعض توازنه،

فأحلم أننى أسير بسيارتى فوق جبال من الرمال الناعمة وتتعثر بى الطرق وأدخل ممرات أظنها تحدث انفراجة فى الطريق فإذا بها مسدودة بكم هائل من الرمل، أظل أحفر وأحفر لأجدني فى ممر آخر مسدود أيضا بالرمل..

حتى النوم صار مثل كوابيس الواقع.. كرهت أخى مجدى فقد صار يرتب نفسه لمرافقتى فى جلسة الكيماوى.. كدت ألقبه بمجدى الكيماوى..بالأمس انتظرنى بسيارته أمام المستشفى.. أشفقت عليه من المجىء لأكتوبر والعودة وتكرارهما .. تجاسرت رغم الهزال وصرت أركب الميكروباص، وأنتظره مجدى أمام المستشفى..

مجدى على النقيض من عاطف تماما. صموت مغلق على ذاته، يذكرنى بحضرة المحترف موظف نجيب محفوظ ..الحياة لديه تم ترتبها فى نسق واحد. لم يتجاوز ذهنية الموظف التقليدى وليس لديه أسبابا للتجاوز. أجد صعوبة فى التواصل معه وليس ثمة لغة تجد طريقا على ألسنتنا .. يمسك بجريدة ويظل يقرأ ثم يستأذننى ويذهب للصلاة ويتركنى وحدى ليتوحد فى مسجد المستشفى. النساء الوحيدات دون ازواج يحسدننى لأن رجلا بمرافقتى فى جلسة الكيماوى.

أحسب حسابات الود الصارمة مثل صرامة فم أخى أن الواحد والعشرين يوما بين الجلسة والأخرى لابد أن تسفر عن بعض أيام أسترد فيها شيئا من حيويتى .. أظل أكابد عتمة أنهاك الجسم ووغيمات وسأم الرغبة الدائمة فى التقيؤ.. ثم مرارة الحلق وجفافه وتقيح الشفاه ومرارة الفقد واللون البنفسجى القاتم الذي يزحف على الأظافر فتبدو مثل أظافر أصابع عامل استورجى..

سافرت سهام بيومي وشغلت شوقية بإبنها وهالة بعملها وغيرهن بأسباب أخرى والفقد واحد.. لكن بقى معى شعبان يوسف ونادية الضحاوى وصفاء عبد المنعم

ومحمد مستجاب (الإبن).. وجاءوا أصدقاء جدد مثل سلوى عبد الباقى وطنط وداد مترى ومديحة عمارة وأحمد الخميسى وسمية رمضان وفاتن محمد على وسلوى محيىّ الدين ونور الهدى زكى..

أكد يوسف غطاس على أهمية الاكثار من النوم لالتئام أنسجة الجسم والأعصاب التى قطعها الجراح فى العملية مع الورم، ولاستعادة الانسجام والهدوء النفسى أكثرت من المهدئات لتدخلنى فى "مود" نوم..لكننى لم أكن أعلم أن النوم هو الآخر لا يقل فى كابوسيته عن كوابيس النهار..

حلمت أننى واقفة فى شرفتنا وفى يدى ثلاثون جنيها طارت منى كلها .. ورقتان، إحداهما بعشرين والثانية بعشرة. الأولي دخلت شرفة عم شفيق البقال والثانية دخلت شرفة أم عطية القبطية والتى تحكى دائما أنها فى مرحلة من عمرها كانت زوجة لمسلم. جئت بالثانية ووجدت صعوبة مع الورقة الأولى.

كان عم شفيق مازال نائما هو وأسرته متعددة الأفراد.. بينما وفى هدوء أدخلتني الخادمة الشرفة وأتيت بالورقة ذات العشرين جنيها. أخذتها حتى دون أن أنظر للوجوه والأجساد التي تلفها رائحة النوم.
وما كدت أصعد لشقتنا بالورقتين حتى وجدت عم شفيق البقال في الخلف يتهمني بأنني سرقت من شقته عشرة ورقات بمائة جنيه، كان يضعها على الكومودينو، وأن الخادمة أكدت له أنها لم تر تلك الورقات ولكنها رأتني هذا الصباح داخل الشرفة.

لم تشفع لي العشرة الطيبة والطويلة مع عائلة عم شفيق البقال في عمارة واحدة فقرر أن يأتي بالبشعة وهى طاسة كبيرة سوداء يشعلها على النار وعلىّ لعق

ظهرها، فإذا كنت بريئة لن تؤذيني النار ـ هكذا يظن ويدعى ـ وإذا كنت متهمة فبالتأكيد ستحرق لساني.
قال أنه سوف يمارس هذا علىّ والخادمة في آن واحد ..

رفضت صيغته الغبية في البحث عما ضاع منه والمهينة لحالة الرقى والتحضر التي أحرزتها وابنته وفاء زميلتي فى الجامعة التي تفرط في الزينة واللهو وتبديد الوقت طول العام وتلجأ لي لأذاكر لها في نهاية العام.

تركنى عم شفيق وكان كعادته منذ عرفناه يبالغ فى ابراز فحولته أمام نساء العمارة وهو يصر على أن يتحرك فى العمارة بسرواله الأبيض البفتة وفانلته القصيرة وأمى تسخر منه وتدعوه بالقرد الويشى، بينما تبتسم له غالبية الجارات ويظهرن كاشفات أثدائهن ويتابعنه وهو يقطع أرض الشارع بقوة أسد غضنفر.

فى الحلم كان عم "شفيق" جارنا بنفس السروال البفتة والفانلة الحمالات يبالغ فى إ بداء فحولته. يظل صاعدا ونازلا على السلالم وعلي لسانه لهجة تهديد.

لم آبه به وأخبرته أن عليه أن يفعل ما يشاء وأغلقت باب شقتنا فى وجهه.

الغريب أن الرجل حين لجأت إلى ابنته ورحت أذكرها بأيام الطفولة وجدتها وقد فقدت الذاكرة ولا تعبأ بشىء إلا بثديها وقد استعارت حمالة صدرى. كنت آمل أن تلعب دورا لتهدئة الخواطر بيني وبين أبيها. لم تكن ابنته وفاء مجرد بنت الجيران. كانت أكثر من أخت وصديقة. وما أن سمع الرجل كلام ابنته حتى انهال يوبخنى بأنه رآنى أكثر من مرة أسرق عرسان ابنته كما رآنى أسرق بيضة مسلوقة من على مائدتهم.

لم تتذكر وفاء شيئا من طفولتنا وصبانا، ولم تنصفني لحظة عند أبيها الذي يصر على أن أقبل الامتثال لطريقته الشعبية لكشف الحقائق. علىَّ إذن أن العق البشعة ليتأكد بأنني بريئة ولست مذنبة.

في الحلم حكيت لجارتنا أم عطية القبطية التي تسكن أسفل عم شفيق البقال فأكدت لي أنه "راجل ناقص وذيله نجس" وأنها هى المرأة الكادحة والتي تعمل تومرجية بإحدى المستشفيات لم يتردد في مراودتها عن نفسها والتحرش بها فى الطالعة والنازلة، فلا يتورع عن أن يدق عليها الباب فى وقت متأخر وهو عائد من خمارة "كاريوكا".. رصدت أم عطية أكثر من شاب في الحي ماتوا أو جنوا أو فقدوا أبصارهم بسبب الخمر المغشوشة التي يتاجر فيها أبناء "كاريوكا" ويدعمهم شفيق البقال..

حالة التشويش التى يؤسس لها محلول الكيماوى منذ الدقائق الأولى لا تعنى أحد..تعنى فقط أنني سأدخل فى غيبوبة تامة، أقاومها بالنوم فتتمازج الأحلام بالكوابيس ولا أستطيع أن آجد فرقا واضحا..

لغات مستحيلة

المبنى جميل ومنمق يشبه مركبة فضائية..أو مبانى الاحلام .. وأغلب الوافدين فقراء، وافدين من القرى والنجوع.. عيونهم مدلاة على الأرض تجرى نظراتها خلف خطوات الممرضات والأطباء على الأرض الجليدية..

وأنا صاعدة الدرج أدرك على نحو وآخر أن المركبة ستغلق علىّ نوافذها وأبوابها فأدور وكأنى فى جحر ضيق تنسحب منه نتف الضوء الباقية وتدب العتمة بديلا للنهار فيضيق بى الصدر والأفق ومجال الرؤية لكنى أتصالب وأواصل الصعود إلى قسم الكيماوى..

ينتظرنى شقيقى الكبير مجدى ينظر لى بابتسامة هادئة.. أتى به الواجب والضرورة . أمام العيادة أصررت على لقاء الدكتور داوود يعقوب. فى المتابعة يتركون المرض يتوزعون على الاطباء وبختك يابو بخيت، الاطباء صغار يتمرون على الطب فى أجساد الفقراء.. فئران تجارب لا اكثر. لم أستطع الجهر بهويتي ككاتبة وإلا فما الداعى لوقوفى فى الطابور مع خالتى أم اسماعيل القادمة من كفر الغلابة..

كنت أصر على انى أتعامل مع طبيب واحد .. حفظت اسمه كما حفظت ملامح وجهه التى تنم عن طيبة وانبساط . أغلب أطباء هذا القسم لا يبتسمون ولا تتزحزح عن ملامحهم برودة الصرامة. يتعاملون معنا كجثث محتملة لا يجب أن تبقى الذاكرة منهم شيئا.

طمأننى الدكتور داوود بأن الاشعة سليمة وأكرمنى بسخاء فى علاج ما بعد الجلسة للحفاظ على الكبد والكلى وقد دخل الجسم فى عراك مع الكيماوى الذى بدا بعد وقت كحليف متواطىء مع المرض لا مقاوم له.

أغلب الوجوه أعرفها جيدا .. نجلاء العريشية وهناء الاسيوطية ونها السكندرية.. وبعض الوجوه الجديدة..

لم أجد سريرا فارغا إلا إلى جوار "عواطف ".. شابة فى العشرين من منفلوط.. نظراتها المستريبة تستطلع بها درجات من الأمان وربما الأمل.. فعل بها الكيماوى ما فعله بالجميع. أتت اليوم بكآبة وحزن مقيم. حكت أن الدكتور طلب منها أشعة فوق صوتية على الثدى الآخر . طمأنتها أن هذا عادى وسيتكرر من آن لآخر للاطمئنان وليس للشك.

وقعت فى نفس المأزق من قبل، ولم ينقذنى من دوائر الوهم والفزع سوى كلمات يوسف غطاس. يشعرنى

طول الوقت أننى المرأة الوحيدة فى حياته وربما المريضة الوحيدة باستثناء أمه ورواد الصيدلية.. يشعرنى أيضا بأنه مسيح آخر على الأرض هبط عليها من كوكب آخر ليشفى الأمراض ويبرىء الأجساد من أسقام العصر وعلله، فضلا عن ذلك التفانى الذى يجعلنى أحيانا أدخل دوائر الشك والريبة وربما عدم التصديق. كلماته بلسم ونظراته رهان على الأفق القريب وربما البعيد. لا أنسي جملته الجميلة التى كدت أرفعها شعارا للمرحلة...

ـ ح نعديها يعنى ح نعديها..

طلبت منه أن يقرأ تاريخ عمه الذى حكى لى أن روحه تسكن جسده النحيل الرقيق، تناسخ أرواح.. أشفق على أى بشر يعيش حياة بشر آخر.. يجزم لى أنه سار إلى بيت عمه فى شبرا على الرغم من أنه أبدا لم يعرفه من قبل ، وصعد ودخل شقته ونام على سريره وفتح الجرامفون بالموسيقى التى يحبها ..

يدخلنى يوسف فى فيلم خيال علمى ولا تزعجنى النهايات..

"عواطف منفلوط" شابة، بؤسها يراكم فى قلبى طبقات من المرارة ... أحزننى حزنها. وانبرت قريحتى تحثها على التفاؤل والمقاومة..

نظراتها تؤكد لى بأننى أتحدث بلغة غريبة لم تسمعها من قبل ..

سألتها إذا ما كان الرجل الوسيم ذو الجلباب الذى كان معها وخرج ليدخن سيجارة فى الحديقة المجاورة زوجها، فنفت وأكدت لى أنه عمها الذى يربيها فى بيته مع ابنائه الذكور. رأيت فيلما عن امرأة كانت ترى كابوسا ليليا.. أنها معلقة فى نجفة فى السقف والرجال يتعلقون بثدييها ..نظرات عواطف سدت الفراغات التى رسمها سؤالى وتركتها وجلست على سريرى..

كان أخى مجدى يجلس إلى جوارى يقرأ الجرائد كعادته حتى تأتى الممرضة بزجاجات الجرعة فيتركنى

للألم والكآبة وينزل ليصلى ويمعن فى الغياب حتى يعود وقد مر وقت يكفى لأن تنتهى المسألة.. مجدى أحب أخوتى إلى نفسى لكننى أكره هدوءه وبرودة أعصابه..

الممرضة "غادة" حامل وبيدها الزجاجات.. بدت لى مثل فأر بلع برتقالة.. تبدو باردة الملامح. اعتدنا من طاقم الممرضات على البرود والملامح الصارمة وعدم التعاطف. يتعاملون معنا باعتبارنا أكوام من المرض المكثف، عليهن بتفكيكه إلى أجساد.. وما أن غرزت ابرتها فى وريدى حتى قالت:

ـ معلهشى ح تتألمى شوية..

طلبت منها أن تشد ستائر السرير التى تنفرط حولى لتجعل من المكان غرفة مغلقة . اختفى وجه هناء ووجه زوجها ووجه عواطف ووجه نجلاء ووجوه كثيرة وراح الألم والأسى كل منهما يأخذ مكانه فى نفسى..

أجزم أننى كنت أسمع للأسى وللألم وللحسرة أصواتا تشوش على صوت حلبة الصراع فى جسمى بين الخلايا السرطانية والخلايا المناعية. كنت أرغب فى سماع أى موسيقى غير هذا الضجيج الموخز والموجع..

وعلى الموبايل رحت أرسل رنات لأحب الأصوات الى قلبى.. أرسلت رنة إلى يوسف وجاءنى صوته الحنون يسأل عما إذا كنت أرغب فى شىء....

ـ رغبت فى سماع صوت بشرى فقط..

ظل يتحدث معى ويؤكد لى أن المسألة هانت..

دمعت عينى وأرسلت رنة أخرى لشوقية وشقيقى عاطف..قال لى كما قالت شوقية الكردى..

ـ أجيلك؟ ..

أكدت لهما أننى بخير..

عـاد مجـدى مـن الصـلاة واسـترخى علـى السـرير المجاور..والرغبـة فـى القـىء يتخللهـا حلـم بتقيـؤ كـل مفاسد العالم وقبحه...

حين فتح مجدى الستار رأيت الممرضة النحيلـة مثـل سـرنجة وقـد جـاءت لتنـزع إبـرة الكـانيولا وتمنحنـى قطنـة لأضغط بها على الوريد.

سلمت على هناء وزوجها وقبل أن أخرج اقتربت منهـا وسـألتها عـن صـحتها. كانـت تبـدو منهارة..سـألتها بينـى وبينها..

ـ عندك أطفال.. أجابت

ـ ثلاثة..

ـ أرجوكى قاومى من أجلهم..

يوم التخطيط

ارتفعت أنزيمات الكبد وتراجـع جهـاز المناعـة وانخفـض ضـغط الـدم لحـدود خياليـة...قال يوسـف بهدوئـه المعهـود جملته التى أحب سماعها..

ـ ح نعديها.. حتما ح نعديها..

رغم مرحلة الهزال والوهن التى دخلتها إلا أننـى أفـرح حين يزج يوسف غطاس نفسه معي تحت سقف الأزمة .. أشعر أنها بمثابة شـاحن لإرادة الحيـاة بـداخلى. لـم يكـن لـي معـه تاريخـا يبـرر كـل هـذا التعـاطف فضـلا عـن معلوماته الطبية التي وضعها تحت يدي ونومه الذي سمح بأن أؤرقه ولو فى منتصف الليل. كانـت الأيـام الاولـى مـن

معرفتى له ولأسـرته قـد اختزلـت سـنوات طويلـة وحرقـت عدة مراحل فى اتجاه صداقة عميقة وود جميل..

أعلم أن ما حدث في الثاني عشر من أكتوبر الماضي هو زلزال مثل زلزال أكتوبر الذي رج مصر كلهـا عـام ١٩٩٢. طـال ليـل النفـق ومازلـت أعـول علـى ذلـك النهـار البعيـد. معذرة نزلت الدموع على خدي وبللت الورق. مجرد " بـلاك مـود" وأنـا أحسـب الحسـبة طيلـة فتـرة الإشـعاعي وهـل بمقدور ذلك الجسد الهش والخارج لتـوه مـن معركتـه مـع الكيماوى، مع خصـم لـم يكـن كـفءً لـه غيـر تلـك الشـعلة المضيئة بـداخلى والتـى تعمـل مـع الخلايـا المناعيـة فـى مقاومة المرض..هل بمقـدوره أن يصـمد للسـفر يوميـا مـن أكتوبر للمستشـفى فـى شـبرا علـى السـاحل وبـالعكس لتلقى جلسات الاشعاعى..

قررت بيني وبين نفسـي وبعيـدا عـن الآخـرين التعامـل مـع السـفر يوميـا باعتبـاره نزهـة ضـرورية، فطالبـت إدارى قسـم الاشـعاعى بتحديـد موعـد مبكـر. مازلـت غيـر قـادرة على قيادة سيارتى، نصحنى الطبيب بالقيادة فقـط داخـل مدينة اكتوبر لتحريك الذراع الأيمن وضـبط مسـألة التوافـق العضـلى سـريعا.. والبـديل الخـروج فـي الصـباح وأخـذ " الميكروباص " وتفادى شرائط النحيب والعويل التي تهـيمن بضـراوة علـى كاسـيتات المـوت والعقـاب والآخـرة والثعبـان الأقرع وفتاوى فايف ستارز.

كل سائق يرغب فـى ان يطيـر بالركـاب طيرانـا ليـأتى بثمن الميكروباص مع الفوائـد المبـالغ فيهـا. لـذا فأحاديـث النواح والعويل هى التى ستسـدد عنه دين السيارة وهـى التى ستعمى عنه ضباط المرور و ستخلى الطريـق أمامـه من الزحام وستبذر فى طريقه الخير..

هذا الصباح نهضت لأغسل رأسي جيدا وكأنني أرغب في الإطاحة برائحة الكيماوي التي ظلت تلازمني الأشهر الخمس الماضية. مثلما لازمنى اكتشاف وجود مشط أو بنس أو توك شعر فى درج أو كيس ورأسى بلا شعر، تبدو مثل قلقاسة مقشورة. أفرطت في استخدام الشامبو والصابون المطهر وبدوت لنفسي وكأنني أرغب في إزاحة تاريخ كامل للألم وانتزاعه من جذوره. صار يلازمنى أيضا احساس حاد وكثيف برغبة دائمة فى التقيؤ .

كان صعود عدد من الطوابق ونزول أخرى ودخول غرف مظلمة لا تصلح إلا للدسائس والمؤامرات، يجعلنى أدرك أن ما حدث وما زال يحدث هو تجليات مؤامرة أكبر ، لا تحتمل استبعاد أحد. والجميع متورط بما فيهم نفسى..

كنت أعاند الاحساس بالحزن والكآبة فأمسح دمعى إذا ما غافلنى وسال، خشية تغير كيمياء الروح والجسد. حدثنى جميل عطية الروائى والانسان الجميل من سويسرا ساعة كاملة يحذرني من الحزن والاكتئاب بعد الجراحة وطوال فترة العلاج، فكنت أبدع فى اجترار أية بهجة حتى من رؤية طيور بيضاء أو حتى سوداء تمر فوق رأسى. كل الطيور مبهجة لي حتى الغربان والحدايات والبوم.

لم أفهم ما هو التخطيط حتى دخلت حجرة رئيس قسم الاشعاعى ورأيته يمسك بقلم فلوماستر ثقيل ويأمرني بالتجرد من ثياب النصف الأعلى. وقفت أمامه نصف عارية وشعور عارم بالأسى لا أدرى لماذا.. أهو لفقد جزء من الجسد يدخلنى منطقة الاعاقة..لا وقت للبكاء على اللبن المسكوب... فلم ينفعنى لا مع رجال ولا مع أطفال.. تزوجت عدد من الشهور لم يقترب للسنة الواحدة ولم أنجب وظللت خمس سنوات كعب داير على المحاكم ومكاتب المحامين للحصول على ورقة الطلاق الذى لم يتم إلا حين أصدر رئيس الجمهورية قراره بقطع العلاقات

مع العراق بعد غزو صدام حسين للكويت، فسقطت كل القضايا وحصلت على الطلاق..

بدا أن المراحل التى تلت بعضها ليست إلا شكلا من أشكال التنكيل بامرأة ، حتى الممرضات جليديات ليس لديهن أية تعاطف مع امرأة مثلهن. كان التخطيط هو وضع خطوط طولية وأفقية تحيط الجزء المبتور والمخيط خياطة رديئة فلم تحدث أى تجميل للمكان المبتور متعرج وبارز وناتيء. وكأنه عدد من الغرز لخياط مبتدىء. أتفادى رؤيته فى المرآة.. بدوت مع التخطيط وكأن قطعة من جسدى تحتل فى التقسم الجديد لحساب الحزن والألم . رغم ابتسامة الطبيب الدائمة والتي يعلقها مثل وردة بلاستيكية فى عروة المعطف الابيض، إلا أنني أدركت على نحو وآخر بأن لا معنى لها.

رأسي هي العضو الوحيد المتاح له أن يطول الماء. ليس بمقدوري الاستحمام فهناك منطقة من جسدي مرسومة ومخطط حولها لحساب الإشعاع. منطقة محتلة لحساب العدو اللعين.

ـ خلاص.. أدخلي خدي الجلسة..

قالها وقد نفد صبري تماما ولم يكن بصحبتي أي من أخوتي، وبدوت لنفسي وربما للآخرين حالة تفتعل شكل القوة والصلابة رغم هشاشة الداخل..

يقوم الفنى بتشغيل الجهاز وينصرف .يغلق الحجرة بعد أن يكون قد سحب كل الضوء منها ويتركنى للصمت والعتمة فأغمض عيني متناسية كل شىء ، وأتشبث فقط برحابة المخيلة والتي تتركني أحيانا لصوت الآلة الذي " يزغور" ويغزوني إحساس بأنني حقا في بطن حوت ضخم. يتمهل قليلا قبل أن تتحرك أمعاؤه لهضمي.

أناشد سحر المخيلة البشرية التي طالما سعت إلى ابتكار وسائل تعين أصحابها على تجاوز الكوارث الأزمات والمسافات وكسر الحواجز.. وأترك نفسي آمنة في بطن

الحوت لكن سرعان ما تتغير الأصوات ويفتح الفنى الحجرة ويدخل محركا الحوت في اتجاه آخر لا أتبينه بعيني ولكن تحدونى القدرة على الحدس به.

لا أدرى لماذا راح عقلى يستعيد أيام الحجر .. ذلك الحجر الذي كان يربض أمام بيتنا. تحرك كل الذين في البيت بين مرض وصحة وحياة وموت وسفر ورحيل وهو قابع أمام الباب يشهد أوجاع الناس وأحزانهم وأحلامهم وهزائمهم.

شغلتني فكرة الخلود والأبدية فى زمني المبكر وأنا أرى الناس تتساقط مثل أوراق الشجر الذابلة والحجر باق.. راح الأسلاف والأجداد والآباء وبعض الأبناء والبنات والحجر باق لم يتحرك. كنت أعى على نحو ما ضآلة البشر ووهنهم إلي جوار الحجر، وكيف يتآكلون وهو باق. حتى أنني قررت أن أعقد معه صلحا أبديا فذهبت وجلست عليه وتركت مساحة كبيرة خالية عله يتحرك ويتكلم ويمنحني سر بقائه. وهو الذي لم يدخل صراعا من أجل البقاء كما يفعل البشر وأغلب الكائنات الأخرى حتى النمل.

حين عرفت أنني مصابة بالسرطان ابتسمت و تذكرت أيام انشغالي بفكرة الخلود والأبدية منذ طفولتى، وضحكت ساخرة من فكرة حصاري بالموت الذي يدفعني دفعا لتجاوزه بإرادة فولاذية لا لشيء إلا لأجل الحياة نفسها، على الرغم من أنني لم أعش المباهج التي حلمت بها فى الحب والزواج والأطفال ، وإحراز طموح أدبي يليق بتعب وشقاء وصدق موهبة . على العكس تماما كانت الرحلة منذ الصغر تأخذنى من شقاء إلى شقاء، وكأنها صخرة سيزيف أحملها على ظهرى وما أن أدرك بداية الجبل تسقط منى وأنزل لأبدأ من جديد.

حدث هذا حين اشتريت سيارة صغيرة مستعملة تجنبنى المآسى التى تتعرض لها المرأة الوحيدة فى ركوب الأتوبيس والميكروباص والمترو، وتخصيص عربة

للسيدات أشعر فيها بأننى فى سرادق عزاء للسيدات أو فى قفص حريم والزى السائد الحجاب والنقاب ويتعامل الجميع معى على أننى مسيحية..فضلا عن عناصر التحرش والاستيلاء على أذنى لبث ثراء التفاهة اليومية والصراعات واعادة انتاجها لازاحة الملل والرتابة وقت زحام المرور..

علمتنى سيارتى القيادة فارتبطت بها ارتباطا بشريا حميميا وفى لحظة وقف ضابط مباحث ببابي ليخبرني أن سيارتى مسروقة وعلىّ تسليمها إليه، وأن علىّ أيضا النزول حالا لعمل محضر ورفع قضية وموت يا حمار.. وبدأت رحلة شقاء أخرى بين المحامين وأقسام البوليس والمحاكم..

حتى حين قررت أن أكتب سيناريوهات لأعمالى. كنت أطمح فى كتابة دراما جميلة أحسن بها شروط حياتى وحياة البشر، فإذا بالشركة المنتجة تطالبنى بتصريح كتابة يستخرج من نقابة السينمائيين بعد دفع مبلغ فادح، وكنت قد أمضيت سنوات لأكتب وأمزق حتى وافقت الرقابة على إجازة مسلسل "نساء وحيدات". وإذا بالاجراء الرسمى مثل اجراءات الدفن والميت حى، يطلب تصريح كتابة من كاتبة. يومها استشعرت كما هائلا من القهر وأن الصخرة التى أحملها على ظهرى سقطت مرة أخرى وعلى النزول لحملها من جديد..

وغير ذلك كثيرا والفارق دائما في درجة القهر وليس في النوع.

عرفت أن المرض من الدرجة الثانية واحتمال العودة قائم بنسبة خمسين فى المائة.. شكرا للذين يقهروننا..

وجوه غائمة...

فـى مركـز الأورام يرتجـف بـدنى دائمـا كلمـا دخلـت ورأيت وجوه الأطفال التى تشبه قلقـاس مقشـور، أتفـادى النظر إليها فى محاولة عبثية لتحصين الـنفس والـروح ضـد الحزن والفزع على هذا الكم الهائل من الأطفال..

وفى قسم الاشعاعى الحركة دائبة ومتصلة..

فجأة وجدته أمامى ..صديقى شعبان يوسـف .. كنـت غاضبة لأنه ومنـذ بـدأت المحنـة لـم يتصـل ليسـأل علـىّ.. فرحت أنه أتى ليساندنى. اقتـرب يسـلم علـىّ ةيسـألنى عن سر وجودى فى المركز.

دهشت فقد تخيلت أن شعبان يوسف جاء من أجلى بعـد أن علـم بـأزمتى مـن أحـد الأصـدقاء. كـان برفقـة أمـه حاصـرها هـى الأخـرى المـرض. سـلمت عليهـا وقبلتهـا.. أعرف أم شعبان جيدا فنحن اصدقاء منذ زمن. ربتـت علـى كتفـه واعتـذرت لـه دمـوعى، فقـد تخيلـت أنـه أهمـل مشاعرى ولم أدرك أنه هو الآخر فى محنة مشابهة..

الفنيون فـى مركـز الإشـعاعى غايـة فـى الدقـة فـى استدعاء المهارة واحترام الوقت.. كل الحضور إما مرضى أو رفقـائهم.. جئـت وحـدى، أصـر علـى قيـادة سـيارتى بنفسـى.. طالت المسألة واشتدت وطأتها علـى نفسـى فما بال الآخرين ..

الآلة الضخمة رابضة مثل وحش أبيض يفرط فى إخفاء أسنانه ومخالبه وأذرعه وأياديه،فأتقدم مستنفرة كل قوتى كأننى أدخل إلى مبارزة..

يوجهنى الفنى بالشـكل الـذى يحقـق أفضـل النتـائج المرجوة فيصوب الاشعاع على مكـان الجـرح، محـذرا ايـاى مـن أدنـى حركـة.أظل ثابتـة مغمضـة العينـين بـين فكـى

الوحش. وبعد قليل تتحرك أياديه ليدخلنى إلى أغوار لا أستطيع ادراكها عبر المخيلة..والظلمة متعددة الطبقات تسلمنى كل طبقة إلى أخرى وأسمع أصوات الوحش مثل "زغورة" بطن جائع أو تفكك مسامير أو صواميل فى آلة. ينهض خيالى وأدرك على نحو وآخر أن تهاويما بنفسجية تأخذنى إلى بعيد.... أدرك أنه فى منتصف الوقت سيدخل الفنى ويدير مفتاحا آخر .. وتأخذنى المخاوف وتصاوير الرعب، فربما فى لحظة شديدة العبث تنهار هذه الآلة فوق جسدى وتبتلعه وأجدنى أجرى مذعورة إلى مخاوف أكثر رقة. وتأخذنى أسباب الخوف إلى أنبوب كبير حتى نهايته ليدخل الفنى ويدير المفتاح ويخرج ثانية فأفرح أن نصف الوقت تحت جهاز الاشعاع قد إنقضى .....

آلة تعذيب أخرى سأخرج منها وأسير فى الشارع امرأة مشعة.. حذرنى البعض بألا أرى أطفالا أو شبابا أو حوامل فمددت الخط على استقامته فقررت ألا أرى بشرا..
نبهت على أخوتى بألا يأتوا بأولادهم كما نبهت على أخى جمال حتى لا يأتى بزوجته التى تتشوق للإنجاب من أكثر من عشرة أعوام، ومازالت تصر على شوقها وأنا أشجعها . جمال هو الوحيد الذى كانت لعبة الجينات وقانون الوراثة على أشدهما معه. ورث عن أبى كل أشكال الشراسة والقسوة والتسلط وقهرالآخرين. اكتشفت أن أبى وزع صفاته الوراثية بالعدل القبيح على أخوتى الثلاث.. فأخذ مجدى اللامبالاة والانفصال التام عما يحدث فى الحياة.. وأخذ عاطف العجلة فى اتخاذ القرارات والنزوع الدينى حتى التطرف، وطمع جمال فى الباقى..

أخفيت نفسى عن البشر .. حتى الأصدقاء والجيران والذين يدقون الباب لطلب حسنة .. خشيت على كل البشر وقررت أن أتحمل توابع الزلزال وحدى..

أثنان وثلاثون جلسة اشعاع يوميا من أكتوبر للقاهرة وبالعكس، والوقت يمتد فى ردهات العتمة ولابد من اللعبة القديمة التى أستخدمها كآلية دفاع، فأستدعى تصاوير وتهاويم أو أحلام لذيذة ..لعبة مجربة للخيال تستدعى جيشا من الخلايا المناعية لمهاجمة الخلايا السرطانية.

ونفس الحلم الذى يتكرر كثيرا فى مناماتى .. أننى داخل سيارة متهالكة لا تسير عجلاتها بل أجرها لتتقدم بى.وتنقطع أنفاسى كدا وتعبا. أدرك على نحو ما أنها حياتى أو جسدى الذى صرت أتعامل معه كالسيارة التى إذا ألم بها عطل أنزل لأصلحه ثم "أزقها" بنفسى حتى تسير ولو لأمتار قليلة.. وإذا ساعدنى آخرون ، تحفرأسماءهم فى لوحة الشرف المثبتة على بوابة روحى، ويصيروا أصدقاءً إلى الأبد.بهجة أخرى تضاف لكم البهجات الصغيرة التى أستحلبها مثل حبات النعناع.داخل دوائر التهاويم يتفتق ذهنى لاستدعاء أشياء جميلة لتؤكد لى أن مسارات العمر لم تكن موحلة تماما..

ضمن الوجوه التى أستدعيها وجه "آندى" بطل فيلم لم أره من بدايته.."وداعا شوشانك" لكننى عشقته عشقا وانتظره دائما على أى من قنوات الدش .. شاب مثقف سجن فى جريمة قتل غير متأكد منها وحكم عليه بثلاثين عاما. كان يقرأ بنهم ويراسل مؤسسة عامة لتمنحه دعما لعمل مكتبة للسجناء وبعد ست سنوات استجابت إحدى المكتبات الكبرى وأرسلت له كما من الكتب المستعملة.. وأقام بمساعدة السجناء مكتبة عامرة فى السجن ودفع الجميع للقراءة. جمع "آندى" الكثير من المعارف وخاصة فى علم طبقات الأرض واكتشف المسئولون بعد هروبه أنه حفر خلف صورة يعلقها لراكيل ولش على جدار زنزانته نفقا أوصله إلى ماسورة للمجارى. ظل عائما فى القاذورات لمسافة خمسمائة ياردة حتى وصل إلى مصرف فمزق ثيابه ورفع يديه للمطر وضوء القمر مستمتعا بالحرية..

سأستدعى أيضا لحظات الحب الجميلة التى عشتها مع الرجل الوحيد الذى أحببته وتزوجته ولم تصف الحياة بيننا كثيرا ولم يكن لأى منا ذنب أو جريرة . كان يستمتع بممارسة فعل الحب والغزل تحديدا قبل نزول الصاروخ.. وكان الخوف والفزع يتكفلان بتدمير أجمل المشاعر فأرجوه أن يأخذنى ونفر إلى الشوارع ليفعل البعد والتنائى فعلهما فى تفتيت الخوف والفزع إلى دقائق وساعات نذرع فيها الطرق جيئة وذهابا حتى يسقط الصاروخ.

كتلة الحر الصافى المنزوعة تماما من أى رحمة يصبح بمقدورى الامساك بها من فوق أشجار مجهولة الهوية. وفى السيارة أقترح عليه النزول إلى منطقة وسط المدينة وحين يتوقف أنزعج.. وأدعوه لنجرى ونجرى ربما استطعنا تجاوز قدرنا.. ونظل طول الليل نجرى ولا نتوقف وحين ندرك طريق المطار أرجوه أن يدعنى أفر بجلدى من قدر غريب فيضحك ضحكات مجنون أو عاشق أو شيطان..

يأتى الفنى ليضغط على المفتاح مرة ثانية ولا أفيق من غيمات بعيدة، كأننى في لحظات التأرجح بين الضوء والعتمة ألمس بأصابعى سرّ الوجود. تستدعينى اللحظات وأستدعيها لترسم على فمى ابتسامة غائمة لن يراها أحد بسبب الإشعاع.

سهرة مع رجل الأمن

فى ليلة رأس السنة شعرت بقدر من التفاؤل، أن السنة الكئيبة التى نالت منى، ستغور غير مأسوف عليها. كم السيارات المزدانة فى الشوارع بالبالونات والشرائط الملونة ونزق الشباب وصخب الاطفال فتح مجالا لحالة أخرى تخفف على نحو ما سخونة الألم ..

تلقيت دعوات كثيرة للسهر لدى بعض الأصدقاء فى القاهرة وأكتوبر ، رفضتها جميعا لحساسية وضع لا أحسد عليه. أزحت الملاءة عن مرآة الصالة ورأيت امرأة أخرى صارت فى وجهى وجسدى، سقط شعر ى ورموشى وأسنانى و نهض الشحوب والهزال والوهن فبدوت لنفسى مثل كائنات فضائية..خشيت أن يبدى أحد تشاؤمه لوجودى فتصلني سهامه، أشفقت على نفسى من ثقل نظرات البعض وغباء البعض الآخر . احتجب عن مجال السمع والبصر أصدقاء كنت أعدهم من أعمدة حياتى وأركانها. ورغم هذا سامحتهم ورحت ألتمس لهم أعذارا

وأنا أراهم مثل أوراق الشجر اليابسة التي أرغمها الشحوب والاصفرار على التساقط.

تركتهم يتساقطون ورحت أحتفي بالأوراق التي مازالت خضراء تتشبث بمكانها في القلب وفوق الشجرة. أصدقاء وصديقات ومعارف تدافعوا فى اتجاهى بمزيد من الحب كما وفدت إلىّ أصوات من أرجاء العالم أصدقاء وأقرباء وغرباء تصر على تصدير المعنى الأرقى للبشر الجميل، الذين علىّ أن أتمسك بهم حتى آخر لحظة..

قررت وأمى أن نحول الليلة لليلة أكثر من عادية. أعدت أمى كيكة قليلة السكر وأرسلت فى شراء شاى وبن وبعض الفاكهة وشرعنا فى السهر مع برامج التليفزيون..احتجب أخوتى صوتا وصورة لاعتبارهم ليلة رأس السنة ليلة تخص الأقباط أكثر مما تخص المسلمين.

وبعيدا عن "أدلجة" الليلة أستطيع أن أجزم أن كما هائلا من التفاؤل صار أداتى فى تهيئة الأجواء ببهجة مغايرة. ناديت على رجل الأمن وألقيت له من الشرفة بمقص وقطف صحبة ورد بلدى أحمر وأصفر وبنفسج وصعد ببدلته الزرقاء وكاب رأسه.. شاب أسمر عسلى العينين. أعطانى الورد، وأبقى واحدة بيده..

- ودى منى.. سلامة حضرتك وكل سنة وأنت طيبة..

شكرته ووضعت الورود فى فازة صينى مرسوم عليها رسوم صينية تشى برقة ورهافة.

على الرغم من برودة الليلة فقد سرت موسيقى ناعمة وراحت تفتح مجالا لدفء تؤكد أمى انه من جراء فرن البوتاجاز وهى تتابع الكيكة.. لم يمر وقت قليل حتى فاجأتنى أن أنبوبة الغاز فرغت، وما تبقى منها لا يكفى

لإعـداد فنجـان قهـوة... نـادت أمـى رجـل الأمـن نفسـه. يجلـس علـى أول المربـع السـكنى لحمايـة العمـارات وسكانها، شاب ريفى غير مؤهل على أى نحو من الأنحاء وربمـا يجهـل القـراءة والكتابـة، تـأتى بهـم شـركة الأمـن الخاصة لتضعهم أمام المربعات السكنية ولا تمنحهم إلا مبالغ زهيدة فى مقابل أن يمضى كل منهم وردية إثنى عشـر سـاعة. لاحظـت أن أغلـبهم معوقـون ، مـن يعـرج بساقه ومن له كف معقوف ومنهم عجائز أو شباب دون العشـرين فضـلا عـن أن بعضـهم لـه "سـوابق" فتـرغمهم شركة الأمـن الخاصـة علـى العمـل بشـروط غيـر إنسـانية والمرغم والمضطر والبائس والذى يعول زوجة وأطفال ليس عليه إلا أن يركب الصعب...

أكد لنا موظف الأمن أن عربة الأنابيب مرت منذ قليل ولن تمر ثانية إلا فى صباح اليوم التالي. وفى إدارة أمى للأزمـة نادتـه ليسـاعدنا فـى نقـل أنبوبـة السـخان إلـى البوتاجـاز وبالفعـل صـعد الشـاب ونهـض بالمهمـة كاملـة. وحين فرغ مسح كفيه ببعضهما ودعتـه أمـى تحيـة علـى مجهوده معنا على كوب من الشاي.

فى البدء أوصلت لها إحساسا بالتردد ثم سـرعان مـا أكدت دعوة أمى لموظف الأمن..

في تلك الليلة بدا موظف الأمن مختلفا عن ذلك الذي نـراه كـل يـوم يجلـس فـي مقدمـة المربـع السـكنى فـي منتصف الحديقة يحرس المكان. كان شـابا وسـيما ونحـيلا قدمت له أمـى قطعـا مـن الشـيكولاتة التـى جـاءني منهـا الكثير، فأبى متعللا بأنه مريض "سكر" وأنه سيترك هـذه الشيكولاته لأطفاله فمنحته أمـى الكثيـر منهـا. بـدا ممتنـا وهو يشرب الشاى والخجل يلفه. فيحرك نظراتـه بيننـا ثـم إلـى الأرض.. أكـد أنـه يتعـاطى حقنتـين أنسـولين صـباحا ومساءً.

ـ يا ضنايا يابنى .. ده أنت صغير على السكر وبلاويه..

ثم وكأنها تستدرك شيئا راحت تؤكد له بحنان بالغ أن السكر مرض يمكن مصادقته مدى الحياة، ونصحته بألا يستهين به، فمن استهان به أهانه. وأنها هى التى جاوزت السبعين بأيام مريضة سكر منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما وصحتها جيدة على نحو ما.

كنت أتأمل فلسفة أمى التى لا تتبناها على الاطلاق وأبتسم ، وربما قالت ذلك شفقة لصغر سن الرجل. أدرك على نحو ما مدى رحابة قلب أمى المشرع لكل البشر على اختلاف جنسياتهم وأعراقهم ومستوياتهم وحالاتهم. تذكرت كيف كانت تحتوى صديقتى نادية الفلسطينية وليلى اللبنانية وكارولين الأمريكية وزوجى العراقى وأم عطية القبطية وأم صابرين التى أعطتها غرفة السطح لتبعدها بابنتها الجميلة "صابرين"عن عبث الشباب فى خيام الإيواء.. أمى هيئة أمم متحدة متنقلة..

داعب الرجل الفضول فى عيون أمى وهى تنهال عليه بالأسئلة عن سكان المربع السكنى الذين لا يعرف بعضهم البعض، فحكي أن المربع به الكثير من النساء اللائى يعشن وحدهن. وأنه يحرص على حمايتهن جميعا.
حكي عن مهندسة شابة تعمل بأحد المصانع التى تنتشر فى المنطقة الصناعية بالمدينة وتعيش بمفردها، وان والدها يدفع له ليحميها من زوجها الذى خدعها بأنه مهندس وإذا به مجرد عامل فى مصنع ولم تكتشف خديعته إلا بعد أن أنجبت منه. وأنها الآن تناضل من أجل خلع سريع.

حكى أيضا عن جارتنا الفلسطينية التى تسعى طول الوقت لقمع السكان فى عمارتها وفى العمارات المجاورة زاعمة أن زوجها ذو مكانة أمنية بارزة ولذلك يعمل رئيس

مكتب شركة الأمن على أن يسدل عليها ستائر الأمن والأمان. أراها تتحكم فى مصائر كل رجال الأمن الذين يتناوبون على حراسة المربع السكنى وكذلك عمال النظافة والجناينية.

حكى الشاب بمعرض البحث عمن يتدخل لإنهاء مسألة نقله المؤكدة نتيجة تجاهله لطلبات الفلسطينية التى تثقل كاهله وتضعه فى صورة خادم لا رجل أمن..

كانت جعبة الشاب مليئة بالحكايات وأمى لا تشبع من حكاياته وتلا فنجان الشاى آخر من القهوة ولم يخل الأمر من العصائر والكيك والفطائر والتوصيات على الصحة والأولاد..

ذهب الرجل ولم تنس أمى أن تعطيه بقية علبة الشيكولاته وهى تتفادى النظر فى عينى قائلة

ـ لأولاده.. ولاده ما عندهمش سكر..

ثم وكأنها تربت عليه وربما عليّ..

ـ على فكرة السكر مش وراثة..

تبريرات أمى كثيرة..تفعل هذا حين تبادر بفعل ترانى أتابعه بحذر .. لم أنتظر كثيرا لتدق الساعة الثانية عشرة وأن يمضى العام إلى حال سبيله، وأنا اتمتم مثل صلاة ..

ـ يغور غير مأسوف عليه.

وجه يوسف......

كـل ظنـونى وتهويمـاتى، حتـى اسـتنتاجاتى المبينـة علـى شـواهد ومقـدمات ونتـائج، مـع عناصـر حسـن النيـة..كلها لا تمنحنـى تفسـيرا شـافيا لمـا فعلـه معـى يوسف غطاس ومازال يفعل حتى الآن.

مضى على الزلزال أكثر من ثلاثـة أشـهر وكأنـه حـدث بالأمس فقط..

فـى البـدء بـدا لـى الأمـر أشـبه بالـدخول إلـى بيـت الثعابين وليس هناك من رفاعي واحد أو حتى أحـد الحـواة خفيفى الدم، وفجأة ومن دون أدنى مقـدمات تطفـر الأرض بشاب هادىء، طيـب القلـب ، لا يمكـن أن أتخيـل إلا أنـه يملك جيتارا أو ريشـة أو قلما .. كائن رومانسـى من الدرجة الأولى ، تنشـق الأرض كما فـى الاسـاطير القديمـة ويقفـز لأجده إلى جوارى وفى يده ورقـة طويلـة تـذكرنى بمظـالم المواطنين فى عصـر غـلاة الـولاة .. مكتـوب عليهـا بحـروف مـن ذهـب روشـتة كافيـة للتعامـل مـع الثعـابين والافـاعى والحواة.

لم يمنحنى الحـواة أقصـد الأطبـاء أيـة معلومـات كافيـة عن المرض أو العلاج، مجرد تقنيات يرددونها وكـأنهم كهنـة

المعابد القديمة، أو أنهم المغناطيس ونحن قطع من حديد ننجذب إليهم حيثما يكونوا..

كل طاقم الأطباء تعاملوا مع المسألة وكأنها أسرار عسكرية أو قضية أمن قومى، وأن المريضة التى هى أنا كيان قاصر غير كامل الأهلية يستوجب حمايته من أى وعىّ...

لم يكن الوقت الذى عرفت فيه يوسف غطاس قبل اكتشاف المرض بالوقت الكافى لطرح علاقة انسانية حدها الأدنى المعلومات الطبية وحدها الأقصى فضاء مفتوح وممتد بالود والمحبة.

أتذكر أول جملة قالها لى بعد أن تبادلنا أطراف الحديث وهو يقيس لى الضغط.

ـ فيه منك كتير ؟ انت منين؟

ـ أكيد .. موطنى الأصلى القاهرة..

ابتسم وتحرك مسرعا ليأتى بمقعد بشلتة ثم بضع خطوات أخرى وأتى بحبة "ايبيلات" مع كوب ماء لخفض الضغط..

وجهه ليس غريبا على الاطلاق.. يشبه صديقا أو قريبا أو أى أحد يشبهنى. ابتسامته مثل لافتة مكتوب عليها.. أنت فى أمان.. أو الحياة مازالت بخيرها. ثم ينشغل مع رواد الصيدلية.أغلبهم عمال وموظفين ينتمون للحى الثانى عشر. أحد أحياء الفقراء فى مدينة ٦أكتوبر..

بعد وقت سألنى..

ـ حضرتك ساكنة قريب من هنا

ـ فى الحى الحادى عشر..

ـ فيه هناك صيدليات فاخرة

ـ بس مفيهاش جهاز "زيبق.."..

ـ كله ديجيتال ..عولمة بقى..

وأنا قادمة إليه ذهبت إلى محل للكاوتش وركبت لفلة فردتين. صاحب المحل رجل ملتحى تبدو عليه طيبة متناهية، حدثنى بود وحفاوة هو وزوجته المنقبة والتى

كانت تجلس فى عمق المحل لا تبان من عتمة الداخل.. ابتسم وهو ينظرا إلى سيارتى "فلة" ثم سألنى .. تبيعيها ؟..

ح تركبى أكبر منها ..

فهمت انه يتاجر فى السيارات المستعملة ..

عجلات فلة صارت عفية ومشدودة تنهب المسافات إلى صيدلية يوسف غطاس.. الصيدلية تذكرنى بصيدلية فى شارع القصر العينى فى الستينات، ليس لها من شروط العصر سوى الكراسى البلاستيك والكاسيت الـ سونى الذى تنبعث منه موسيقى كلاسيك..بيانو

منذ جئت المدينة وبعد ترتيب الاشياء صرت أعانى حالة اغتراب لا حدود له. بهرتنى الشقة التى تطل على حديقة بأشجار وارفة الظلال ومساحات من السماء بأفق ممتد.. مدينة بلا دخان أو عادم سيارات وبلا ضوضاء .. بهرنى أكثر مساحة الشمس التى تدخل الشقة، تفرد نفسها مثل غلالات ذهبية على المقاعد والأرض وجدران الشقة التى تطل على بانوراما كاملة لمشهد الغروب وتنويعات لونية وتكوينات السحب، والحديقة مصنع صغير للأوكسجين، والطريق السريع المؤدى للمنطقة الصناعية والنخيل على جانبيه كأنه طريق ثالث للجنة.

كان حلم حياتى أن أعيش فى بيت تدخله الشمس. لى تاريخ سىء مع البرد القارس فى كل البيوت التى سكنتها بدءً من بيت أبى إلى بيت زوجى حتى بيت أمى وبيتى فى مدينة الشروق والذى عشت فيه أكثر من عشرة سنوات دون شمس. فكانت المغامرة غير محسوبة العواقب، والتى لامنى عليها الكثيرون. حتى بعد أن حدث زلزال أكتوبر هكذا أسميت "محنة المرض"، يلومنى البعض وأغلبهم من المثقفين والمثقفات بأن البيوت أقدام

وعتبات ..غيرى العتبة. أهلى وجيرانى وزملائى فى العمل يقولون شيئا لا يختلف كثيرا ...

ـ فرفطة ذنوب ..

ـ كله فى ميزان حسناتك..

ـ روحى حجى أو اعملى عمرة

فى تلك الأثناء وجدت الباب يدق وسيدة بدينة بجلباب طويل ومعها ثلاثة رجال. تستأذننى بأنها ترغب فى أن ترى الشقة المعروضة للبيع..

ـ أى شقة؟

ـ شقة المهندس ماجد هذه..

لم يخطرنى مالك الشقة .. أهكذا تقتحم بيوت الناس وبعد منتصف الليل.. أسقط فى يدى و بعد أن طلبته هى على التليفون أدخلتها وحدها تتفرج على الشقة التى لم تكن مهيئة لاستقبال أحد وتتناثر فيها رائحة الكيماوى والأدوية الكثيرة وفوضى المرض. كانت المرأة تبدو كما لو أنها قادمة لتوها من الخليج.. عباءة سوداء لا تخفى بدانتها المفرطة وذهب غزير وطرحة تسهل لبعض الشعر الأصفر بأن ينفلت ونظرات تبثها هنا وهناك.. وحين أتت عيناها بعينىّ أحسست بأننى احدى مقتنيات الشقة. وأننى لست ساكنة، أو حتى منتفعة بالعين وفق عقد.. بل حارسة لأملاك السيد المالك. عبقرية هذا الزمان. خرجت المرأة وغامت بى الدنيا لأن المصائب تأتى جماعات لا فرادى، فرحت أحدث يوسف غطاس...

كان يوسف قد صار صديقى الوحيد فى مدينة أكتوبر، القرية بشروط العصر، وشيئا فشيئا تكشف لى وله أن ثمة قواسم مشتركة بيننا ..نحزن لعدم تواجدها مع آخرين. بعدها أدركت على نحو وآخر أن حديثنا عن اغترابنا فى الزمان والمكان وقسوة الأب وصرامته نوع من تفتيح الجروح من أجل تطهيرها..

عم غطاس رجل صارم للغاية يذكرنى بشخصية محمود المليجى فى غير أدوار الشر. قوى، خلوق، عاشق للراحة ولأصدقائه المهاجرين لكندا وأمريكا واستراليا و

يراسلهم ويهاتفهم وينتظرهم فى أجازاتهم من العام للعام. أراه يستمتع بالحديث عنهم. فما أن يرانى حتى يسهب فى حكاياته معهم وأنه قد أحرز فرصا كثيرة للهجرة لكنه يحب بلده. كانت أم يوسف وهى امرأة مريضة وجميلة. أحببتها من نظرات الحنان التى تبثها على الجميع. هى الأقرب فى الصفات والملامح من يوسف. حتى فى رقتها وحنانها . مع الوقت صارت أسرة عم غطاس أسرتى فى مكان اقامتى الجديد، والذى صار هو الآخر مثل صحتى على كف عفريت أحمق..

فى الصيدلية يبتسم يوسف ، ثم تنهض بينى وبينه مناقشات طويلة فى الأدب والسياسة والفلسفة. وهو عاشق متيم بالفلسفة والروحانيات واليوجا والبحث فى أغوار الديانات، عن صيغ أكثر انسانية للرحمة . كان يبدو لى مثل طائر محلق فى السماء وكنت على النقيض منه تماما أسير بخطى راسخة على الأرض، فأحدثه عن أحوال الناس وما طرأ عليها من تغيرات ومدينة أكتوبر التى صارت مدينة كوزموبوليتانية تستقطب العرب والاجانب والفلاحين والصعايدة والمتطرفين والمتسولين. ومازال البعض يتعامل مع مدينة أكتوبر باعتبارها قرية معزولة .. وكان عم غطاس ينتظرنى وفى جعبته الكثير من الأسئلة فى كل شىء. ظنا منه أن الكاتب موسوعة كبيرة للعلم والمعرفة ولاحظت أنه سعيد للغاية بعلاقتى بهم وخاصة بـ "يوسف" فاذا حدث وذهبت ولم أجده ينتفض مسرعا إلى التليفون ليخبره بود شديد أن الأستاذة هنا..ولا يمر وقت قليل حتى يأتى يوسف ليجدنى وقد ادخرت له كما هائلا من الأسئلة الخاصة بتطورات الحالة الصحية وكأنها تجليات المكان وكان هو لا يبذل جهدا لطمأنتى..

وجه يوسف وأمه وأبيه وجوه جميلة تبدد غربتى واحساسى بالسأم..

وجه جارى الموسيقار الذى يسكن الطابق الأعلى. تجاوز الاربعين بقليل تبدو عليه سيماء التحضر والاستنارة،

متزوج من أجنبية وله منها ابنة تزوره من آن لآخر. قابلنى بها مرة على السلالم وكان مبتهجا وكأنه يقدم لى انجازه الكبير نتيجة التفاعل الحضارى بيننا وبين الغرب. لم أتعرف عليه جيدا لكن راقت لى فكرة أن يكون لى جار موسيقار وجار آخر بائع للزهور ومجموعة من الجارات الصغيرات كلهن خريجات كليات الفنون الجميلة تزوجن وتحجبن وبقين فى البيت.

وجه جارتى التى تسكن الشقة المقابلة سيدة عجوز يتحلق حولها بناتها وأولادها من آن لآخر وتمنحنى بشاشتها وابتسامتها آفاقا للأمل حين تفتح بابها من الحر.. تم اختبار مشاعرى تجاه جيرانى فى أكثر من فرصة سانحة..

أخبرنى الاستاذ شادى جارى الموسيقار أن ضوء السلم عاطل وأنه سيبذل جهدا فى إصلاحه حتى اذا تأخرت فى العودة لا أتعثر فى عتمة السلم. يرفرف قلبى بحنان البشر حتى لو كانوا غرباء، وحتى لو ظلوا مناطق مبهمة أو ملغومة.. ظننت أننى سأسمع موسيقاه ليل نهار وإذا بى لا أسمع إلا دقات وخبط. وحين سألته أخبرنى أنه يهوى النجارة. ضحك كثيرا حين أخبرته أن أمنية حياتى الآن أن أسكن مع نجار يهوى الموسيقى..

ضحك يوسف حين حكيت له عن جيرانى ..

أتابعه كلما دخل أحد الصيدلية ليطلب علاجا .. أراه بطلا مثل أبطال الملاحم الشعبية والأساطير القديمة يبذل جهدا مضنيا فى خدمته مانحا اياه أذنين صاغيتين.. كنت أظن أنه يعاملنى معاملة خاصة لكنها رقته الدائمة مع البشر الضعفاء والفقراء، يبدى الود والعطف والشفقة ويبذل جهدا فى مداواة الناس والتخفيف عن آلامهم بحنو ورحابة صدر. لذا لم أكن حذرة إزاء تدفق عواطفى فى

اتجاهـه وأراهـا فـى حقيقتهـا بعيـدا عـن مكسـبات الطعـم واللون والرائحة..

كل سكان الحى الفقير أصدقاءه صاروا لى كـذلك.. لـم أر أحدا يدخل بروشتة طبيب، الجميع يـأتون بمواجـع وأنـات وشكاوى.. كـان يوسـف طبيبـا وصيدليا فـى نفـس الوقـت يتفانى فى خدمة الجميع وكأنه نبـى أو مسـيح بعـث مـن جديد..

كنت أدهش حين اراه يدير أزمتى الصحية بذكاء ومهارة وتحد بالغ، وأفرح أنه وعائلته يتعـاملون مـع محنتـى وكأنهـا شيئ يخصهم . كثيرا ما كان يواجه ضجرى وقلقى بجملته الشهيرة..

ـ ح نتعكز على بعض عشان نعديها..

يومها بكيت وفرحت فى آن واحـد لأن هـذا تواكـب مـع الـذين انفضـوا مـن حـولى مـن أصـدقاء ـ أعمـدة خرسـانية حياتى ـ هكذا كنت أسميهم ..

فرحت بذلك الود الجميل الـذى ظـل ينسـاب مثـل مـاء رقراق وأنا أتعامل مع "يوسف" فضلا عما يحمله مـن وعـى ومعرفة طبية تفوق حتى الكثير من الأطباء الـذين عـرفتهم فى المستشفى، بما يستقيه من أحدث النظريات وأحدث طرق العلاج لهذا المرض وذلك الجهد البحثى الـذى يزاولـه من بيته "من النت" عبر جامعات عـابرة القـارات أو التعلـيم عن بعد..

كان "يوسـف" هـو دليلـى الطبـى الوحيـد وكنـت مـن خلالـه أراكـم خبـرة مغـايرة تعيننـى علـى التجـاوز. كنـت أخشـى مـن علاقـة الحـب الشـهيرة التـى لابـد وحتمـا أن تحدث بين المريضة وطبيبهـا، إلا أن العلاقـة كانـت متعـددة المستويات حتى ضبطتنى ذات يـوم.. أطلـب يوسـف فـى التليفون وأسأله..

ــ لــو عــايزة أقتنــى طبيــب جميــل ومثقــف وفنــان وحساس.. أعمل إيه..

وإذا به يرد علىّ..

ـ أنا أصلا من مقتنيات أميرتى..

أكد علـىّ بضرورة أن أطلعـه علـى كـل شـاردة وواردة تخطر على رأسى وكانت الهواجس الخاصة بـالالم والجـرح تحاصرنى، وأن علينا أن ننحى كل شـىء جانبا ونفكر فقـط فى أن أفرح وأبتهج بالحياة والشـفاء القـادم لا محالـة، وأن هذا وحده يغير كيمياء الجسـم والدم مع نمـط الغـذاء الـذى يقوى جهاز المناعة.

أفاض " يوسف غطـاس" فـى تجميـل وجـه الحيـاة مـع الأزمـة بـأن مسـألة الثـدى مسـألة بسـيطة وهنـاك قطعـة توضع مكان الثـدى الـذى تـم استئصـاله وسـيكون الشـكل كمـا لـو أن شـيئا لـم يحـدث علـى الاطـلاق عبـر عمليـة بسيطة للتجميل.

أكدت له أننى لست ممـرورة علـى ضـياع قطعـة لحـم ولا أنتظر قطع غيار لما فقدته. المسألة لا تزعجنى قدر مـا يزعجنـى الألـم بـين الـذراع ومكـان الثـدى المبتـور. خفـف كثيـرا مــن وطــأة المســألة حــين راح يمــدنى بقــدر مــن المعلومات . لم أحرص أبدا على احـداث تـوازن بـين الثـدى المبتـور والبـاق ، بمـلء الفـراغ بقطـع قمـاش كمـا تفعـل الأخريات.. كنـت أرغـب فـى أن أعـيش كمـا أنـا بامكانـاتى وقدراتى الحقيقية، ثم أننى لا أفكر فى الزواج ثانية. الحياة لا تعدم أشـياء كثيـرة مبهجـة، بعيـدا عـن رجـل يحاسـبنى على أنوثة منقوصة..

مضت ثلاثـة شـهور وهـو مبهـور بقفزاتـى الهائلـة فـى اتجاه الشـفاء، وأخبرنى أن نسـاءً كثيرات يستغرقن سـنوات طويلة ليصلن لتلك القناعة النفسية بما حدث..

أجزمت له أننى فقط أرغب فى تجاوز الألم وأستعيد حيوية جسمى لأكتب ولأن لدى عددا من المخطوطات هم أبنائى وبناتى الذين أخشى أن أموت وأتركهم . أكد لى أن بعد جلسات الكيماوى سوف تستقيم الحياة وسوف استعيد شعرى ونضارة وجهى ودفقات الابداع الجميل..

كان الحوار بيننا يجوب آفاقا عديدة ..تحدث معى أكثر من مرة فى مسألة تناسخ الأرواح وكنت أستشعر انها بالونة اختبار يقدمها إلىّ حين ورد فى إحدى قصصى شيئا من ذلك ، فأخبرته أننى لا أخشى الموت، فربما بعثت من جديد فى صورة قطة أو طائر أو عصفور .. تلك الكائنات التى أحب أن أجىء الحياة مرة أخرى من خلالها..وربما كانت الحياة التى نعيشها مجرد بروفة. الغريب أنه كان يخالفنى الرأى، حتى رأيته ذات نهار يسر لى بأنه هو نفسه نتاج بعث جديد هكذا يعتقد. أجزم لى أنه يحمل فى جسده النحيل روح عمه "عيسى" المتوفى والذى لم يره مرة واحدة، وحين وصف يوسف لأبيه عم غطاس" تفاصيل بيت أخيه "عيسى"لم يصدق الرجل فقد كان يوسف صادقا تماما فيما وصف من تفاصيل بيت عمه. حتى أن بقية الاشقاء كانوا يسألون يوسف عن أشياء كثيرة تخص شقيقهم المتوفى وكان يدلهم عليها. لكنهم فيما بعد راحوا يلقونه بالعته والجنون بينما ينادونه وقت الحاجة بالعبقرى والملهم ..

ظل يوسف يمدنى بأحدث الكتب لأقرأ بكثافة شديدة فى فترات ما بعد جلسة الكيماوى الذى كان يحيلنى إلى كيس من القطن المتراخى فى مرتبة قديمة.. فصارت الخيوط تمتد بيننا دون أن تفصح عن ماهيتها ..على الرغم من أن ثمة مشاعر تتبلور تجلياتها فى الأفق بأن شخصا ما يستوقفه ألمى بينما أصدقائى وأحبائى الذين كنت أعول عليهم غابوا أو غيبوا.. كنت أستشعر أن الانسانة التى بداخلى تبحث عن منطقة فى الأخضر واليابس بعيدا

عـن الغـرق ومـا أن واجهتـه ذات مـرة هروبـا مـن مشـاعر طاغية عندى وعنـده بأنـه مثـل أخـى أو مثـل إبنـى حتـى تغيرت ملامحه وقال بعصبية..

ـ حبينى بطريقتك لغاية ما نعدى الأزمة..

بدوت لنفسـى مثل طفلة جرحتها حركـة شـقية وهـى تقطف زهرة .

كانت أمى تدهش هى الأخرى لذلك النصرانى(بلغتها) الذى كرس نفسه مسيحا ليشفينى.. فلا يدخل البيت إلا بالترمومتر وجهاز الضغط والأدوية وابتسامة حنان ولهفة للاطمئنان. كان يوسف يبادر بمعالجتها اذا ما أصابتها بـوادر نزلة برد خشية نقل العدوى.

بعد الجراحة مباشرة كان يوسف" هـو الـذى يغيّـر لـى على الجرح وكنت احس بيده بلسـما شـافيا. نعـم الوحيـد الذى جعلته يرى الجرح كاملا .. كنت أقف أمامه دون خجل بفائق القوة رغم الضعف والهزال، فى الوقت الـذى خجلـت حتـى مـن أمـى وأختـى. رفضـت أن يريـا الجـرح المخـيط بطريقة تـرزى خائـب، لا يعـرف البـدايات الأولـى مـن خبـرة المهنة ..ترك تهدل اللحم كـتلا مخيطـة فـى فـراغ الثـدى.. كنت أشعر أن كيمياءً جديدة تتشكل فى روحى..

والألم مرة أخرى..

لم أكن أدرى أنه بعد مرور عـام علـى زلـزال اكتـوبر .. أجد نفسـى أمام احتمال زلزال آخـر.. عبـر المتابعـة كـإجراء وقائى وجدت نفسـى بـين لحظـة وأخـرى مطالبـة بالسـير فى نفس الردهات المعتمة وعمل كم هائل من الفحوصات والآشعات والتحاليل..

كعب دائر مرة أخرى ليثبت كل عضو براءته تماما مـن احتمال الإدانة مرة أخرى.

قالت أختى منال

ـ سيحدث هذا كل عام..

ـ الله يطمئنك..

خيانـات الجسـد قائمـة طـول الوقـت.. حتـى حـين تكشـف لـى الاصـابة بفيـروس الكبـد الوبـائى أدركـت أن الخيانة ممكنة ومحتملة وواردة ..

كم هائل من "الشكشكة" لعمل تحاليل دلالات أورام ووظائف كبد ووظائف كلى وصورة دم كاملـة وموجـات فـوق صوتية علـى الـبطن والحـوض وآشـعة عاديـة علـى الصـدر

وأخرى مقطعية على فقرات الصدر توضح الضلوع ومسح زرى على العظام.

قررت شراء ستارتين فى طريق العودة من المستشفى، أحتاجهما لحجب الرؤية عن الآخرين مع الإبقاء على ضوء الصباح الغزير..

لم يبرأ الكبد من فيروس "سى" .. بالتأكيد جاء عبر العلاقة مع الدم وتحاليله داخل مستشفى الصراع فيه على أشده بين المرض والمال.. شىء مفجع.. أدخل لعلاج مرض أخرج به ومعه مرض آخر هدية.. تماما كالمؤسسات الرأسمالية الحديثة فى تسويقها للراكد من منتجاتها الاستهلاكية..

طلب الطبيب تحليل آخر يحدد تاريخية الفيروس ونشاطه. أخبرتنى الموظفة بموعد استلام نتيجة التحليل بعد أسبوع فوجدتها فرصة عبقرية لإزاحة الهم والكدر. ففكرت فى شراء الستارتين وتركيبهما والاستمتاع بجمالهما حتى لو لن يمتد عمرى إلا لأيام..

توجس الطبيب الاخصائى من تلك البؤرة التى أظهرها المسح الزرى على العظام فطالبنى بعدد آخر من الفحوصات والآشعات..

فى بحر شهر واحد صرت امرأة مشعة حتى النخاع .. وأخيرا جاءت طبيبة شابة وعصبية لم أرها من قبل، تضاف لكم الأطباء الذين يقولون عن انفسهم انهم كريمة المجتمع. بدا أنها تفوق - فى الخبرة وقوة الشخصية- زميلها الذى يواجهنى دائما بكلام جميل ومطمئن وغير منطقى، مثل مخدر.. هكذا بدا لى ولصديقتى الجميلة "حياة". فأكدت أن هذا ليس ورما وربما كان كسرا وأن على أن آخذ مسكنات وأذهب إليها بعد شهر لتحاليل جديدة.

كان لابد من عمل آشعة جديدة فى مكان آخر واستشارة طبيب آخر .. مبنى معهد الأورام أشبه بخلية

نحـل بـائس ومعتـل، والمشـهد بتفاصـيله مـع اسـتبعاد الشـكل المعمـارى الفخـيم والعصرى هـو تجليـات فاضـحة للفقر والجهـل والمـرض .. ثلاثيـة القهرفـى العـالم الثالـث. والذى ينظر للوهلة الأولي لكل هذا الزحام المتماسك مثل كتلة، يدرك على نحو ما أنه تم سرطنة مصر كلها..

كنت أكابد مـن أجـل تحييـد عينـى عـن عيـون النـاس ووجوههم وأجسـادهم الطافحة بالشحوب والسأم والـوهن بغيـة التركيـز بحثـا عـن الـدكتور فـؤاد.. انقـذنى مـن ركـام الأجسـاد المعتلة بنفس علتى وألقى نظـرة فاحصـة علـى الآشعات والتحاليل فى ضيق المكان ثم أخبرنـى أن كاتبـة تقرير الآشعة المقطعية توصى بعمـل آشـعة علـى فقـرات الصدر لأنه يصعب أيضا تحديد شيئ..

أمسكت بخيط جديد للأمل ربما كـان الأخيـر وخرجـت أجرى إلى سـيارتى الصـغيرة البيضـاء فلـة.. وحـدثتها بأننـا حقا سنعبر هذه الحيـرة مثلمـا عبرناهـا مـن قبـل وحـدثت حياة عن ضرورة شـراء السـتارتين فـأخبرتنى أنهـا لـم تعـد طعام الغداء لأولادها وجريت لأوصلها وأعود إلى بيتى ..

بدت روح صديقتى "حياة" قد غامت حزنا للكلام الاول للطبيب إلا أننى رحت أخفـف عنهـا. كـان الطريـق مزدحمـا وقـد أفصـحت الحكومـة وأعلنـت عبـر شاشـات التليفزيـون والفضائيات عن حقيقة وجـود فيـروس أنفلـونزا الطيـور فـى مصر.

مرض آخر هدية..

خرجنـا مــن منطقـة معهـد الأورام والقصـر العينـى ومستشـفى الفرنساوى وكابوس المستشفيات والأمـراض وفتحت الكاسيت بصوت فيروز الـذى انطلـق يبعـث درجـات تكشف عن قدر من الود تجاه الحياة برغم صعابها. وحـدثت نفسـى بضـرورة تغييـر سـير الكاتينـة لسـيارتى فلـة قبـل استكمال بقية المشاوير..

عند الميكانيكى الذى عرفنى عليه طـارق الرفـاعى ـ اوصانى بـالرن عليـه كمـا اتفقنـا ـ انتظرتـه حتـى جـاء ثـم

جاءت مرفت ابو بكر وخالد جودة فريق الادباء الشبان بنادى ٦أكتوبر.. وجلسنا وكأننا فى ندوة.. راح كل منهم يقرأ قصة ليستمع فى حساسية شديدة إلى آراء الجميع فيها ..يضحك طارق قائلا: حتى عند الميكانيكى نعمل ندوة..

تذكرت حين لجأت إلية حين نامت فردة كاوتش سيارتى جاء وأتى بالعامل وما ان بدأ يعمل حتى رأيت طارق يصر على ان يقرأ لى آخر قصة كتبها.. أخذنى الميكانيكى على جانب وسألنى وهو ينظر لفلة سيارتى الصغيرة:

ـ تبيعيها...؟

أبتسم وطارق وهو يؤكد إنها احدى بطلات قصصى وأنا أؤكد له انها أهم بطلات حياتى..

وفى الشارع فتحت أغنية منير.. " لسة الأغانى ممكنة".

وجه رجل يبتسم لى فى الزحام ويطالبنى بعجلة للأمام حتى تستطيع السيارة التي في الخلف دخول الشارع الشمال ففعلت. أفرح حين يبتسم بشر لا أعرفه فأتفاءل ويدب الأمل فى أرجاء نفسى مرة أخرى.. يطل أمل مغاير ..نعم سأشترى الستائر.

الآشعة فى يد الدكتور علاء يونس الجراح الذى اجرى لى العملية وأوصانى بعمل آشعة المسح الزرى بعد عام لا يرغب فى الجزم بشىء ويطالبنى بعمل آشعة عادية على الفقرة الحادية عشر كما طلبت طبيبة الآشعة.. عدت للدكتور الشاب الذى أستشعر فيه طفولة المهنة وبدائيتها.. لا يستطيع أن يبدى رأيا منفصلا عن رأى إستشاريته التى لم أرها منذ عام.. حدثها فى التليفون وأوصته بالتنبيه علىّ بضرورة عمل آشعة مقطعية أخرى....بدت لى كمن تصف طبخة أو وصفة بلدى لمريض بالسعال. للمرة الاولى أرى أطباءً يعالجون مرضاهم بالتليفون، تطفر فكرة العلاج عن بعد مثل التعليم عن بعد

والزواج عن بعد وممارسة الجنس عـن بعـد وكـل العلاقـات التى يطفح بها زمن العولمة....

كانت معى هذه المرة سلوى عبد الباقى ، جـزم لـى بعبثية ما يحدث وأنها حقا صارت تشك على نحو كبير فـى قدراتهم المهنية..

أجريـت الآشـعة بعـد أن حقنتنـى الممرضـة بمحلـول الصبغة ودخلت إلى الغرفة لأتمدد تحت الآلة الكبيرة التـى تشبه هى الأخرى وحـش معـدنى كبيـر.. كنـت أستشـعر الألم مصحوبا بالحزن فنحيت مسألة شراء السـتائر جانبـا.. ومالك الشقة يفاجؤنى من آن لآخر بمشتر يرغب فى رؤية الشقة، يتابعنى مع زوجة مثل حـريم السـلطان أو جـوارى القصـر بعيـون تصـر علـى اننـى أنـا أيضـا ـ مـع الشـقة ـ مطروحة للبيع ..

طال الألم وبدأ يفصح عن ضرباته فـى ظهـرى .. كـان اشبه بشنيور يحفر ممـرا فجافـانى النـوم ... ظـل يتصـاعد على مدار شـهرين حتى صار مثل طعنـة غيـر قـادرة علـى انتزاعهـا فتكـدر النـوم والسـير والجلـوس والحيـاة بطعنـة.. ليصبح ظهرى خصم آخر حليف للمرض..

ناديـت الجنـاينى وطالبتـه بغسـل وجـه "فلـة" لحـين الانتهاء من الآشعات ، وجهها المغسول جيـدا فـى الصـباح يزيح مشـهد الكآبـة والطعنـات ليبـان بياضـها ناصعا.. قـررت وحياة الذهاب لشراء الستائر..

كبد الحياة

الـذهاب الـى المستشـفى يعنـي حالـة مـن الجلـد والتعذيب بسوط يوخز ويؤلم ويوجـع ويهـين. مجـرد السـير في ردهات المستشـفى بغيـة الوصـول الـى مركـز الأورام يعني التنكيل بالروح والعقل والجسد..لذا أظـل أفـر وأهـرب وأجرى وأبحث عن مزيد من الحيـل والأكاذيـب لتأجيـل يـوم المتابعة أو إلغائه.. كنت أبدو لنفسـي وربمـا للآخـرين مثـل تلميذ خائب يكره المدرسـة.. وكراهيتي للمستشفى صـار لها تاريخ وتراث من الألم والضعف والوهن والهزال فضلا عن صـعوبة السـير وحـدي علـى الأرض والطرقـات..فطن أصـدقائى لهـول المهمـة علـى نفسـى فتبـادلوا علـى مرافقتى.

على طـول الطريـق داخـل المسـتشـفى أرى العمـال والحــرفيين مــازالوا ينظفــون الشــوارع ويقلمــون الأشــجار ويطلون المباني وينظفون الزجاج وكـان علـيّ أن أتأمـل مـا يضـيفونه مــن جمــال، لكــن المســتشــفى لــيس بالصــغيرِ لتختزله العين فى كادر واحد ...أثبت المشـهد وأظـل أرقـب الحياة فى المستشفى وهي تنشـط رغـم المـرض الـذى يترنح فى زواياها..

بعـد انتهــاء شــتاء الآلام واختفــاء عــدد غيــر قليــل مــن الأصدقاء بالموت والزواج والسـفر والخوف والفـزع والتشـاؤم وزهو المناصب واختفاء آخـرين بِـلا وداع أو سـلام باسـتثناء قلة قليلة أجريت اتصالاً تمهيدياً مع الطبيب حول لقاءٍ معـه فى مركـز الكبـد، ومـن أجـل ذلـك لابـد مـن العبـور بقنـوات عديـده أولهـا الحصـول علـى خطـاب يغطـي نفقـات اللقـاء وتوابعه..

نفس المشــهد أكابـده دائمـا مـن أجـل تفـادي وجـوه النسـاء في ثيابهن السـوداء باكيات حزينات ينتظـرن الصـلاة على عزيز لهن في مسجد المستشفى، المختبـىء فـى عمق جراج السيارات مثل سر موجع.. فى كل مرة أتجنـب رؤية المشـهد فأحرص على طيه فى لمحة خاطفة....

صـارت الحيـاة فـى عينـي كـادر سـينمائي ومشـاهد وإشـارات أسـتدعيها وأثبتها وأحركها.. مشـاهد خاصـة جـدا يــتم ازاحتهــا مــن كــوادر قنــوات التليفزيــون والفضــائيات والذاكرة.. مشـهد عـزاء، عمليـة دفـن فـي المقـابر ، قطـة ميتة ، وجه يحتضر ، غرفة العمليات ، مشـاهد الحـب بـين الغنى والفقيرة في الأفلام العربية القديمـة .. كلـب ميـت، مشــاهد القتـل والعنـف علـى وجـوه جنـود الاحـتلال هنـا وهناك.

صار المرض والألم خبرة لها أدبياتها الخاصة..
قال جان جينيه ذات مرة..

"لكل فرد جمال خاص به، وأصل هذا الجمال هو الجرح المتفرد، هذا الجرح مختبئ ومكنون داخل كل إنسان"..
كلمات عبرت عنى بصدق وتحفزنى لأعيش الحياة قفزا على الأحزان ، متخطية كل الجروح وكل المصاعب وكل الآلام..

قد لا أستطيع مقاومة كل مشاهد العنف فى الحياة فألجأ لتحجيم محيطاته وتدفقها. سيظل لغز الموت والخلود والسلام والأمان والحب والحنان زمنا مؤرقا لى مع امتداد الوجود. هذا الوجود الذي لايقوم ولا يصبح له معنى بغير وجودنا.
فى التليفون حاصرنى مرة أخرى مالك الشقة المهندس ماجد ضخم الجثة "عريض المنكعين شلولخ" هكذا كان يبدو لى ولم أره إلا مرة واحدة يوم كتابة العقد بأنه يرغب فى بيع الشقة وسوف يرسل من يتفرج عليها.

أعجز عن الإمساك بلحظة آمنة، لحظة بلا ألم أو عنف أو قهر أو ضجر أو سأم .. لم تعد تروق لى لعبة استرجاع الماضي والنفاذ إلي جوهر المستقبل الذي لم تعد تحيطه هالة من الغموض.. الوضوح الفج والجارح والكاشف يكتنف كل شيء.. أرهقتني الأسئلة وتلح عليّ في رحلة بحث مضنٍ عن بديهيات أخرى ..

كان في استقبالنا ، أنا وحياة. (لا بدّ لي من الإشارة إلى أن حياة محمود كانت زوجة صديقى الشاعر الذى شمله اختفاء الأصدقاء بالزواج ـ من أخرى طبعا ـ والخوف والفزع لآخرين).
أمام المركز بشر يجلسون على مقاعد الحديقة الصغيرة التى تذكرك بحديقة المشرحة..نادرا ما يحفل ذلك النوع من الحدائق بأشجار أو زهور أو حتى مقاعد.. ..البساط الاخضر مجرد نجيل شاحب اللون منحول مثل رأس أصلع..

فى المسافة ما بين مركز الأورام ومركز الكبد وعلى ناصية حديقة المشرحة طفرت الأرض بمشهد غريب.. عدد من النساء ذوات الثدى الواحد قادمات للمتابعة.. واريت عينى عنهن إلى قطة ميتة وعدد من الهررة واقف وكأنه يقيم سرادقا لتلقي العزاء .. المشهد له هيبته وجلاله الخاص ولا أحد من المارة ـ مرضى أو أصحاء ـ يستوقفه الحدث. الكل يجري أو يلهث أو يستنهض الخطى لخطوات كثيرة قادمة فى سلم الاجراءات..

هفت روحى للمشهد فكل الكائنات الحية تتعاطف مع بعضها.. طمأنت نفسي التي صارت تؤمن على نحو وآخر بتناسخ الأرواح، أنني حين أموت سأبعث من جديد فى جسد قطة.. وأن الموت فقط يجىء حين أكف عن الكتابة.. فعل المتعة الوحيد فى الحياة التى طالت أسوارها وانخفض سقفها وضاقت جدرانها..

ابتسمت صديقتي الدافئة "حياة" لمشهد الهررة فى عزاء القطة وقالت:

ح يتجمعوا وياخدوها يدفنوها..

نظر الدكتور خالد قائلا وهو يخفي غضبه..

ـ شوفي دكتور كبد لو سمحت..

قالها وهو يتوجس باحثا عن صيغة مناسبة.. وفى حركة استعراضية كما بدا لي، نظر إلى بقية نتائج الآشعات والتحاليل..وقال

ـ كلها معقولة..بس شوفي دكتور كبد أرجوكي..اللى بعده..

كان يجب أن أتبخر على الفور من غرفة الكشف ليدخل مريض آخر على كرسي بعجلات، يدفعه ابنه مثل ملاكم أو مصارع والرجل نفسه يبدو عليه أنه من بقايا زمن فتوات نجيب محفوظ..

تحرص "حياة" على ضبط انفعالاتها كلما داهمنا الطبيب بأخبار سيئة. أمسكت بيدى وهدأتنى..رقتها

تنســاب بعذوبــة وحنــان ونحــن نتجــاوز الردهــة الطويلــة المرصوصة بأجساد معطوبة ونظـرات وسـأم. ردهـات مركـز الأورام لا تهـدأ مـن المرضـى والمـرض.. يتوافـدون خلـف بعضـهم.. كثيـرا مـا أتجنـب النظـر إلـى الوجـوه والمرضـى الكثيرين حتى أتفادى تنويه جرائد المعارضـة بانتشـار باقـة الأمـراض القاتلـة.. الايـدز والسـرطان والفشـل الكلـوي وفيـروس الكبـد الوبـائي وغيرهـا، ذلـك اليقـين المهـين والقاسـي وشـديد الألم بأن قوى شـريرة عكفت عبر أربعـين عاما أو خمسين على الفتك بالجهاز المناعى للمصريين..

تتوالى خيانات الجسد وخيانات أخرى ..
بدأت خيانات الجسد بالسكر ثم الضغط ثـم السـرطان وها هو الكبد ترتبك أنزيماته.. ما الذى يحدث.. أهو تمـرد الجسـد حـين وجـدني أغيـب احتياجاتـه وأنصـرف عنهـا بمحاولة تحقيق سواء آخر وصحة نفسية وأدبية أخرى .. أجعـل إذنـا مـن طـين وأخـرى مـن عجـين والواقـع الفـظ القاسـي لا يوقـف علـى نوافـذي إلا رجـال كـالجراد الميت..ضعيف ومتهالك لكن رغبته فـى الفتـك مـا زالـت قائمة..
أتذكر مقولة "فرويد" .." ما يُقمع لا يختفي لكنه يعـود دائمـاً كيمـا يزلـزل كـل البنـاء القـائم، مهمـا كانـت درجـة الاسـتقرار التي يبدو عليها".

تأتيني من الداخل كلمات الدكتور خالد
ـ شوفي دكتور كبد....
ويواتيني الحلم الغريب بأنني أسير بسيارتي الصغيرة "فلة بنت خوخة" فى الطرق والجبـال الرمليـة وقـد أجبـرت على السير.. ويعمل العقل عملياته الذهنيـة لإحـداث نـوع من التماثـل بـين الحلـم وتـداعيات الواقـع وعثراتـه والحلـم المغدور .. صار هو الآخـر جبـالا مـن الرمـال الناعمـة تطـرح دائما تحدي السير بين دروبها..

المرضى فى مركز الكبد والجهاز الهضمى يختلفون على نحو ما عن المرضى فى مركز الأورام..والفارق في شدة وطأة المرض على الوجوه والأجساد..

والموظف ذو الملامح الجامدة يؤكد على ضرورة خطاب من جهة العمل يوجه لمركز الكبد فى نفس المستشفى.. وموظف الشركة مثل موظف المستشفى .. رضع البيروقراطية الادارية مع الجهل والفقر والقمع.. كل على طريقة دوخينى يا لمونة.. والليمونة دائما واحدة ونحيلة وهزيلة فى بلد قرفانة..

أخيرا حصلت على الخطاب الذى استدعى الإحساس بوطأة المرض ومرارة البيروقراطية الادارية وقابلت استشارى الكبد.. رجل مثقف على نحو ما ، بشوش الوجه خفيف الظل، حين جلست إليه أجّل مقابلة المرضى والممرضات ليستمع لى فقط.. وحين استعجلته الممرضة.. هتف فيها ..

ـ سيبينى يا عبير أول مرة أقعد مع ست مثقفة..

تذكرت طبيب الأورام الذى حدثته عن درجات من التماثل بين سرطنة خلايا الجسم وخلايا المجتمع عندما رحت أرى أعدادا هائلة تموج فى ممرات مركز الاورام ومعاهد الأورام هنا وهناك فقال.

ـ انت ناوية تكتبى رواية خيال علمى..

رأيت أن الأطباء يصرون على الحط من قدر وعى المريض مهما كان شأنه..شأنهم فى ذلك شأن الملوك و الحكام والمسئولين والجبابرة.

بينى وبين طبيب الكبد جرى حديثٌ لطيف عن الثقافة والمرض وأمراض المثقفين والكتاب ...

.. بهتت صديقتي حياة وهي تراني وأنا أنحي جانبا سلطة الطبيب وأحاوره كمثقفة..عن أمراض الفقر والجهل

والمـؤامرة الكبرى..حتـى صـار المـرض يحتـل مسـاحات خرافية من الحياة ..

وجهه الوسيم يطرح وافر النعمـة والرغـد الـذى تربـى ونشأ فيهما.. بشرته الوردية وعيناه الواسعتان والمفرطتان فـى عسـلهما تمنحانـه فرصـة جليـة للعـيش بـين عيـون النساء..لم أستثن اتجاهاته النسـائية والتـى استشـرفتها من نظراته وحركة كتفيه. حتى ابتسامته تضع من يتعامـل معه بين قوسين من عالمه.

بعد سجال طويل حول أمراض الفقر فى العالم الثالث طمأنني بأنه حتى لو أنني حقا مصابة بفيروس سـي فإنـه سوف يعالجني..

غادرتـه وأنـا فرحـة بـأنني أسـير طريقـي بمنتهـى البساطة وقد طلب مني بعض التحاليل..

بدت حياة تضحك كثيرا لطريقتي..

علمتني الحياة لعبة الفقد والبدائل فصرت أتعامل مـع جسدي وكأنه سيارة وكلما تعطل بها شيء أنزل وأصلحه ثم أجعلها تسير بى..

للمرة الألف يصر موظف الشـباك علـى ضـرورة وجـود خطاب آخر من الشركة لتغطية نفقات التحاليل....

كـل بمسـئوليته يصـر علـى هلاكـي واسـتهلاكي..والقطة مازالـت ملقـاة علـى الأرض يحيطهـا الهررة وهـم ينظـرون إليهـا ويتـأملون نظـرات المـارة.. تزايـد عدد الهررة وكلها تنظر للقطة الميتة ...

قلت لحياة..

ـ ح يعملولها عزاء ..

ردت...

ـ أو بيجمعوا بعض عشان يدفنوها..

موظفة التأمين الصحي فى الشركة لا ترغب فى ممارسة إنسانيتها ..تمارس فقط حضورها الغائب طوال الوقت كموظفة مقهور لا تفعل شيئا سوى ممالأة رؤسائها..وعلى الرغم من اننا تعينا معا إلا أنها لم تبدى تعاطفا لتوفر عليّ معاناة الدوران كعب دائر بين بيتي في أكتوبر والمستشفى في الساحل ومقر الشركة بباب اللوق .. بعد مشاجرة تطلبت اللجوء للقيادات العليا فى الشركة لمناشدة انسانيتهم لا واجبهم المهني حصلت على الخطاب.

فى موعدى مع طبيب الكبد أخذت نتائج التحاليل وذهبت اليه وتجاوزت مشهد العزاء فى القطة الميتة وقد زاد عدد الهررة .. هررة قذرة وشرسة .. نقدت حارس الطبيب (رجل نحيل طويل هالك ومتهالك ينظم دخول المرضى) بمبلغ لا بأس به حتى لا يتركني لآخر الطابور..

كان الطبيب يفرط فى ابداء مظاهر الرعاية والاهتمام بمريض ريفي تبدو عليه مظاهر النعمة ويمنحه "كارت" ليعرف الطريق إلى عيادته الخاصة..

ابتسامته مثل لافتة كبيرة تجتذب بأضواء النيون والألوان ومباهج كثيرة الناس. أبدى حفاوته وما أن رأى نتائج التحاليل حتى سألني ..

ـ عند حضرتك تأمين..؟

ما أن سمع اجابتي حتى انبرى يكتب كما هائلا من التحاليل الأخرى أزعجني منها أخذ عينة من الكبد.. فى أقل من ثانية تمت ازاحة وجه الطبيب ذي البشرة الوردية وتثبت وجه تاجر أو حرفي أو منادى سيارات .. أنا وآلام البشر بالنسبة له "سبوبة" وما رقته وأناقته وابتسامته ولغته إلا مجرد "عدة شغل.." و "بزنس" بلغة العصر.

انصرفت غير راغبة فى تحقيق كل ما طلبه..وبعد عناء في محاولة لتفادي الصدام المتكرر بأكتاف وأجساد

المرضـى الفقـراء والمعـوزين خرجـت مـن العيـادة .. كانـت القطة الميتة مازالت ملقاة على الأرض وحولها عـدد كبيـر من الهررة يتبادلون النظر بينها وبين المارة..

بدا المشـهد مؤثرا وداهمتني رغبة في البكـاء منعتهـا حياة وهى تربت على كتفى وتحمل عنى أثقالى ..

انتبهــت إلــى أننــى نســيت ملــف نتــائج التحاليــل والآشـعات لـدى الطبيـب الاستشــاري فعـدت ثانيـة وأنـا أتفادى الصدام باكتاف وآجساد فقراء المرضى..

حين خرجت رأيت سرب الهررة يتناوب على مضـاجعة القطـة الميتـة علـى المـلأ وفـى الفـراغ المحـدود بـأعين المارة..

تحاليلى يا بطة....

وبطة هى صديقتى الجميلة فاطمة التى تسـير مثـل البطة وأدللها بمناداتهـا ببطـة وبطبـوط وبطاطـة وبطـاطس، وتصر أن تحمل عنى شيئا من أثقـالى، مثـل حقيبـة نتـائج التحاليل وصور الآشعات خـلال دورتنـا الكاملـة بـين ردهـات وطرقات وممرات وسلالم الألم فى مركز الأورام..

ذهبت أنا وبطة فى ثيابنا الرجالية كمـا تبـدو للآخـرين وأنـا حليقـة الـرأس كمـا أبـدو مـن آثـار الكيمـاوى وشـعرها الملفوف كعكة كبيرة فوق رأسها وكل منـا بوجـه خـال مـن أى "ماكيـاج" إلـى عـالم لا تطربـه سـوى صـورة المـرأة الخانعة بمزاجها الهادئ وأناقتها المفرطة، ووجهها الطـافح بالألوان في مقابل مداهمة عيون الرجـال ..أى رجـل حتـى لو كان تافه القيمـة ، المهـم أن يكـون مكتوبـا فـى بطاقتـه "ذكر"..

لم آبه كثيرا بصورتى فى عيونهم ..كنت امرأة شرسـة فـى كامـل تجلياتهـا للـدفاع عـن حياتهـا، كـي تبعـد عـن

نفسـها، ولو جزئياً شبح الموت حتى وان كـان هـذا الشــبح هو الذى سـيريح الجميع.

أكـد الطبيـب فـى آخـر متابعـة علـى ضـرورة إعـادة التحاليل بعد شـهر.. وطلب صورة كاملة للدم ووظـائف كبـد ووظائف كلى ودلالات أورام..
وجـوه النســاء ذوات الثـدى الواحـد تراوغنـى أم أننـى أروغ من احساس أقـرب إلـى شكشـكة الإبـر بأننـا جميعـا نساء الثدى الواحد.. نسـاء بائسـات..

يذكرنى الطبيب الاخصائى ببورتريه فان جـوخ للـدكتور جاشــيه.. أصـدق صـورة للمـزاج السـوداوى فـى العصـر الحــديث، فالثنايــا بــين مقلتيــه مــع عقــد الحــاجبين،مع المنخفض ما بين الأنف والفم أكثر وضـوحا، واصـفرار الجلـد وميل إلى النظر إلى الأرض،هى علامات وأعراض مـا زالـت لها أهميتها فى تشخيص الاكتئاب..

فرحت أننى سأعيش شــهرا فـى أجـازة مـن الـذهاب إلــى المستشــفى والســير فــى دروب وممــرات الألــم وشكشـكة الإبر والنوم تحت الآشـعات والـدخول فـى بطـن الأجهزة الضخمة مثل دودة كافكا الهائلة والتى تشــبه آلات التعــذيب أيــام النازيــة، أجهــزة المســح الــذرى والــرنين المغناطيســى والأشــعات المقطعيــة والموجــات فــوق الصـوتية، امـتلأ جسـدى بإشـعاع كـأننى مؤهلـة للصـعود للقمر أو كوكب آخر أو للدخول لمفاعل نووى..

وبالفعل رغـم الألـم والمسـكنات الفاشـلة حاولـت أن اعيش حياة عادية وأنحـى جانبـا كـل مـا هـو خـارج الحلـم والأمل ورحـت أقـرأ وأكتـب كثيـرا وكـأننى "أكتـب فـى آخـر زادى" كما تقول أمى، أكتب كـأننى سـأموت غـدا وتـذكرت مقولة قرأتها لأحد عباقرة الفكر والأدب " اقـرأ كأنـك تعـيش أبدا وأكتب كأنك تموت غدا..

عشت حياة ملؤها درجات هائلة من البهجة، وبعد انقضاء الشهر ذهبت مثل تلميذ مكره على الذهاب إلى المدرسة لإعادة التحاليل مرة أخرى..
بعد مهاترات على نفس أروقة وسلالم الألم وكم العتمة التى تتراكم مثل طبقات جيولوجية فى الطرقات المقبضة أتيت بنتائج التحاليل..
أخذتها للأخصائى الذى يذكرنى بدكتور "جاشيه" ، وطرت وخلفى بطة تترجرج .. كنت أرغب فى أن يطمئنى أحد.

كان خارجا لتوه من غرفة العيادة الخارجية وحين رآنى أعاد النظارة الطبية على عينيه ونظر إلى الأوراق.... دائما ما أراه يضفي على نفسه سمت المفكرين والحكماء ..
ـــ دلالات الاورام عالية وانزيمات الكبد عالية والسكر.....و... و
تذكرت أيام كنا فى الدراسة ونغضب من الصفر ونطالب حتى بنمرة على الخط..
قال الدكتور ـ بس غريبة ..المناعة عالية..
التقطت من يده نتائج التحاليل وطرت فرحة أن شيئا فى جسمى لا يزال سليما، وخاصة جهاز المناعة ، جهاز الأمن القومى للجسم وبطة إلى جوارى غير فاهمة.. قلت لها..
ـ ياللا ناخد فلة ونطير..

آخذنا "فلة بنت خوخة اللى جت بعد دوخة" وطرنا وأمام كشك لبيع الزهور توقفنا ثم طرنا مرة ثانية وعلى "تابلوه" "فلة" "باقة ورد أحمر وأصفر وبنفسج ونثار من زهور بيضاء صغيرة ورفعت صوت المسجل بأغنية محمد منير " نعناع الجنينة" وبطة تردد خلفه "نعمات البحيرى" على نفس إيقاع لحن الأغنية وكانت ضحكاتنا تملأ الشارع ونساء كثيرات فى السيارات المارة يبدين وكأنهن

مقطوعات الألسن والأنفاس إلى جوار أزواجهن. كن ينظرن بتأفف وربما بغيظ لبهجتنا التى تخترق العادم والضجيج والزحام والحزن والكآبة..ولا أحد يدرى أننا نطير داخل قفص..أو كمثل غريق مازال يتنفس تحت الماء..

اقتربت فتاة شابة بسيارتها القديمة وسألتنى ..

تبيعيها؟

تقصد "فلة"..

ما الذى يحدث الجميع يرغبون فى انتزاع فلة منى .. حتى فى الحلم..هناك حلم يتكرر كثيرا.. أن اكون فى مكان وذاهبة لآخذ سيارتى فلا أجدها وأظل أبحث فى ذاكرتى عن المكان الذى تركتها فيه وأظل أهرول يمينا ويسارا بحثا وقلقا وتوترا على سيارتى.. لا أرغب فى افساد لحظات البهجة القليلة بين ركام السأم....

نزلت وبطة لكافيتريا هادئة على النيل.. فنجان قهوة يكمل نشوة ابتهاجنا بقياس نسبة المناعة .. تدخلنى القهوة فى دوامات لذيذة رغم مرارتها..أتذكر لحظة اكتشاف راعى الغنم الأثيوبى "كالدى" لحبة القهوة حين لاحظ ابتهاج الماعز والأغنام بعد أكلها لحبيبات داكنة اللون تسقط من الشجر فقام بنفسه بتجربتها فبدأ مثل قطيعه يشعر بالابتهاج والسعادة.

ضحكت بطة ضحكتها التى أحبها وهى تخبرنى أننى مثل التلميذ الذى رسب فى الامتحان وحين عاد قبله أهل الحى

ـ لأ وإيه .. وزع بيبسى على الناس وعاش الحالة ...

وضعت فنجان القهوة ونظرت للنهر الممتد وأنا أتذكر أن أغلب العباقرة فى التاريخ الانسانى، سياسيين وفلاسفة وشعراء وعلماء وفنانين كانوا يرسبون فى امتحانات مدارسهم وأن الذين نجحوا أغلبهم من الأغبياء وهم الذين يحكمون العالم الآن وهم الذين يتصدرون

واجهات المجلات والجرائد والفضائيات ليبثوا ثراء التفاهة ورذاذ الغباء .. فلنهنأ بغبائنا وغباء الآخرين..

الحنان الرسمى.....

صار هوسا لا يقاوم ألا يلتفت أحد للألم أو للمرض والمرضى . المهم أن تكون الأوراق مكتملة والإجراءات سليمة..الأطباء وطاقم الممرضين والموظفين فى المستشفى، حتى الحارس الذى صنع لنفسه مهنة داخل المهنة لتكون "سبوبة" وينظم وقوف السيارات. كله يتعامل بلا أدنى تعاطف، خشنت أجسادهم ومشاعرهم ، ولابد أن تلوح أولا بالمال واحترام النظام والأوراق والإجراءات.

والرأفة بالمريض جملة اعتراضية لم تعد تمر فى سماء أحد ، ألا يكفى المريض مرضه، يجلدونه بسلسلة الاجراءات والأوراق الرسمية واللف على المكاتب ونظرات جامدة للسأم والضجر ، يصعد مبنى وآخر ويسير طرقات وممرات وردهات طويلة يلاحقه فيها الوهن والموت فى الوجوه وعلى الجدران وعلى المقاعد.

أتراجع وأشفق عليهم فأغلبهم أجيال جديدة تفتحت عيونهم على انهيارات الحياة والغلاء و الكوارث والنكبات والقبح والزحام وأصوات النشاذ، وسقوط كثير من القلاع القديمة والحصينة فصار الألم والمرض والفقر والجهل والتطرف ظواهر طبيعية للغاية مثل البرد القارس فى الشتاء والحر الفظ القاسى

فى الصيف واختفاء الخريف وشحوب الربيع واحتقان الهواء بدخان وغلالات داكنة فى السماء..

حتى أبى اضطر أخيرا لزيارتى كإجراء رسمى لكى لا يعيب عليه أحد وهو الذى ظل طيلة عمره يناصبنى عداءً مجانيا ... حتى أخوتى يرغبون فى اجراءات وأوراق رسمية شأنهم شأن الأطباء والممرضات وموظفى وموظفات المستشفى،وموظفة التأمين الصحى فى الشركة التى ظلت تقابلنى بابتسامة حفظا للعهد القديم فقد كانت صديقتى وقد تم تعييننا معا ..

هى مسئولة التامين الصحى وأنا مريضة بالسرطان.. قالت فى غلظة فجة..

ـ علاجك يكلف الشركة كتير..بعد كدة ح نحولك ع التأمينات الاجتماعية..

ويسقط صوتها القبيح فى جب عميق..

هى الآن احدى البقرات العجاف فى حلم قديم ، تمسك بيدها سلطة تمرير الأوراق السحرية للسماح بعمل تحليل أو فحص أو آشعة أو علاج كيماوى أو اشعاعى أو اجازة مرضية...

هى ايضا مثل أخوتى ينتظرون اجراء الغسل والدفن وإعلان الوراثة، حتى ينقضوا على ما شقيت وغبنت وتعبت وكافحت من أجله..

مكتبة بها أجمل ما قرأت وتمنيت قراءته وبعض الأشياء الصغيرة ..كمبيوتر وطابعة وسكانر وتليفزيون وكاسيت ومخطوطات رواياتى التى لم تنشر بعد.. سيلعب أولادهم جيمز وأتارى على الكمبيوتر الذى كان ذاكرتى وعقلى وخزانة أفكارى، وسيبيعون مكتبتى إلى أقرب تاجر روبابيكيا، وسيبيعون سيارتى البيضاء الصغيرة "فلة بنت خوخة اللى جت بعد دوخة" لمن يدفع أكثر وسينتظرون تكريما لى هنا أو هناك ليتعللوا بأعذارهم للغياب.

حتى أختى الوحيدة والتى تزعم طول الوقت أننى أمها التى ربتها، لا تتنازل عن عالمها ليوم واحد وتأتى لتعد لى وجبة ساخنة أو حتى تجالسنى لساعات.. كدت أضيق بمكالماتهم التليفونية التى تذكرنى بالورود البلاستيكية..

ما زالت ترن فى أذنى كلمات إبن أخى حين كان طفلا صغيرا.. شقتك حلوة يا عمتى ..ح تبقى بتاعتنا لما تموتى..؟

زميلاتـى وأخـوتى الأعـزاء بزوجـاتهم وأزواجهـم وأولادهـم وبناتهم أشفق عليكم مـن حملـى الثقيـل الـذى طـال كثيـرا، فـلا تروننى أشفى تماما ولا ترونـى أمـوت موتـا خالصـا ،لـذا اسـمحوا لى أن أنحـيكم جانبـا لأى وقـت يسـمح الله بـه، فصحبتكم كئيبـة ورسمية وليس بها أى دفء أو حنان..أحب صحبة أصدقائى الـذين يسـاندوننى لأنهـم يحبـوننى وأحـبهم ولـيس بيننـا ورق رسـمى سيستخدم بعـد مـوتى كـإعلان للوراثـة. وربمـا أصـبح بعـده كاتبـة شـهيرة فيـدر اسـمى مـالا عبـر مسلسـلات التليفزيـون وأفـلام السـينما التـى قـد تـروق قصصـى ورواياتـى آنئـذ لمنتجيهـا ، أمـا أصدقائى وزملائى فى الكتابة فقد هيأوا أنفسـهم تماما واسـتعدوا بمقـالات وقصـائد المـدح والرثـاء، لـو أسـمعنى أحـد شـيئا منهـا لتمسكت بالحياة. سوف يجتمع الجميع وكل منهم بيـده أو بقلمـه أو بعقله اعلان للوراثة .

الآن هم مختفون تماما، وربمـا خـارج الخدمـة . علـى الـرغم من أنهم يعلمون أننى ذاهبة لأدخل متاهة جديـدة. القليـل مـنهم أبدى أسفه لانشغاله بالسفر أو بالحرج و ربما للتشاؤم..

جاءتنى مكالمة غريبة من رجـل يـدعى بأنـه المالـك الجديـد للشقة التى أسكنها. اشتراها من المهندس ماجد المالك القـديم دون أن يصر علـى رؤيتهـا أولا.. وأنـه اشـترى شـقتين غيرهـا فـى نفـس المنطقـة، فهـذه الشـقق لا غبـار عليهـا وأنهـا مثـل الجنيـه الـذهب..فى آخـر المكالمـة نصحنى المالـك الجديـد بالبحـث عـن شقة أخرى فى نهاية مدة العقد..

ـ بس أرجو ان حضرتك ما تفهمنيش غلط..

أسمحى لى يا نفسـى القاسـية أن ألـتمس للجميـع أعـذارا فرغم كل هذا مازلت أنظر كل صباح لأرى أن خط الحياة فى كفـى لا يزال طويلا، ولـم يعـد لـى إلا الكتابـة رياضـة روحيـة فـى الوقـت الذى يسعى كل شـىء حولى إلى نسف الأمان والطمأنينة.

بيان أخير ضد الموت

المشهد في تفاصيله يشي بأن أنوثة هذا الوطن مستهدفة مثلها كما الذكورة.. صرنا نسير على الأرض قنابل موقوتة لا تدرى أى نفس متى تنفجر ومن ينجو .ستكون الصدفة وحدها صاحبة الفضل الأعظم. ربما كانت فاجعتى فى قطعة حيوية من جسدى هى التى هيأت لى شيئا من الخرافة.. وبعد عام بدت بؤرة على العظام ..وبؤرة ثانية .

عدد كبير من النساء بثدى واحد يطمحون فى المحافظة عليه. عفوا نون النسوة لا مجال لها فى واقع مأساوى نعيشه نحن نساء الثدى الواحد.

لذا نأتى فرادى وجماعات للحصول على حصتنا من العلاج الإشعاعى لنخرج للشوارع نساء مشعات تعرضن من قبل للعلاج الكيماوى الذى هو أبشع من السرطان ذاته..

كلنا قادمات وطامحات فى أن تثبت ـ مرة أخرى ـ أجسادنا قدرتها على مواصلة الدفاع عن آخر رمق فى الحياة، بعد أن صرنا نساء بائسات منقوصات الأنوثة كما يبدو فى نظرات النساء قبل الرجال. فكل واحدة فقدت تاريخ صلاحيتها للغواية بمعايير الأمهات والجدات والفلكلور الشعبى، جميعهم لا يرون المرأة إلا حاملة لفيروس "الغواية"..

حين تتم براءة الجسم من أى تخاذل ترتفع زجاجات بلاستيكية لأنواع الكيمو ثربى ..محاليل بيضاء بنفس بياض الأسرّة وعيون الممرضات النحيفات. أختار سريرى إلى جوار النافذة. يحدد لكل واحدة منا مقدار الجرعة وعلاج لتنشيط الكبد باعتباره العضو المنوط بالتصدى..جهاز الأمن القومى للجسم. كلمات صديقى يوسف غطاس فى التليفون تفعل فعلها فى استنفار أدواتى للمقاومة.

يذكرنى المشهد بالأسطورة الاغريقية القديمة التى تعتمد على حياة شعب حقيقي عاش قديما شمال البحر الأسود وكانت نساؤه يشكلن وقت الحروب كتائب انتحارية سببت رعباً كبيراً للشعوب المجاورة. ولم تكن الأمازونيات الأغريقيات يعاشرن الرجال إلا لفترات مؤقتة عن طريق خطفهم أو أسرهم في الحروب والقتال ..فصارت كلمة "أما - زون" تعني امرأة بلا ثدي" لأن الأمازونيات كن يقطعن أثداءهن اليمنى ليسهل عليهن حمل الأقواس وإطلاق السهام ...

احدى الممرضات بدينة وقبيحة الوجه تتعامل معنا بعنف شديد. ترانا مجرد أكوام من اللحم المعطوب والجهد المبذول لإصلاحه غير جاد بالمرة.. فالمستشفى أشبه بمختبر لإجراء التجارب ولا يمكن أن نستثنى مع عدد من إناث الفئران... الطبيب مثل الممرضة لا يكلف نفسه عناء الابتسام فى وجوهنا، فقررنا تبادل الابتسامات والضحكات كنوع من تبادل الأكاذيب اليومبة..صرنا أحوج البشر لمثل هذا النوع من الكذب، كما صار بيننا تعارف وصداقة اللحظة الاضطرارية. كل منا تدرك أنها منوطة بذلك منذ لحظة دخولها العنبر.

بعد أن تعلق الممرضة لكل واحدة زجاجة على "ستاند" المحاليل المعدنى بطريقة عصبية وربما بقرف نتبادل النظر وتقول احدانا "حكم القوى" ...

أغلبهن شابات. مازلت أشـفق علـى شـبابهن الغض بعـد أن بتـرت ا ثـدائهن .. أحـدث نفسـي أننـى أحببـت وتزوجت ورأيت بعضا من حلو الدنيا ومرها فما بـال هـذه أو تلك التي سيحكم عليها بأن تغلق أستار الدنيا على قلبها وجسدها المشوه بأنوثة منقوصة...

بدت كل واحدة تنظر إلـى الأخـرى وطـاقم "السـنيدة" من الأهل أو الأصدقاء إلى جوارها. وجـدت نفسـي وحيـدة وضحكت فى نفسـى وكـأننى فوجئـت ..هـذا العـادى عبـر رحلـة عمـر شـاقة وجميلـة وحـرة.. وحيـدة دون طـاقم "سـنيدة".. ليـت أخـى عـاطف إلـى جـواري الآن، ربمـا أنساني مرارة اللحظة. المـرارة متمـددة فـي حلقـي مثـل جثة كلب أجرب مات لأتفـه الأسـباب. ربمـا لأنـه لـم يعـرف لماذا يلاحقه الجرب والبؤس..

حدثت عاطف على الموبايل ولـم يـرد .. ثـم وجـدتنى "أرن" على أرقـام أصـدقائى ..كنـت أرغـب فـى سـماع أى صوت بشرى لأى من أصدقائى أو معارفى.

على الموبايـل تعلـل أخـى عـن عـدم حضـوره بيقينـه الحاد بوجود إحدى صـديقاتي معـي، لا يعلـم أنهـا تركتنـى فى أول منعطف من أجل موعد مع إحدى جماعات التمويل الأجنبى.. أكد أنه سيأتي فطالني إحساس مراوغ بصدقه. جلسـت "أفـر" الجرايـد صـفحة خلـف الأخـرى ولا شـيىء يغرى بـالقراءة أو الاهتمـام . أكاذيـب فـي أكاذيـب ولا أحـد تغريـه لحظـة صـدق واحـدة. أعتـي الجرائـد هـي نفسـها تتعامـل مـع صـحفييها بفاشيسـتية. صـديقاتي وأصـدقائي الذين يعملون بها تنحـى أعمـالهم جانبـا أمـام أهـواء أصغر مستثمر يدفع ثمن صفحة كاملة لإعلان عن سلعة تافهـة، مـن تلـك السـلع التـى تحملهـا الشـاحنات الضـخمة مثـل عمـارات متحركـة أراهـا مـن شـرفتى وهـى ذاهبـة لأحـد الموانى للتصدير.

الشـابة التـي فـي السـرير المجـاور تـئن أنـات حـزن غريبة.. أزحت برفق الستارة التي تفصلنا وواسـيتها بجـرأة المتحدث من منطقة الترف الآمنـة. علـى الـرغم مـن أن لا ترف ولا أمان أرزح فيه كما يظـن الـبعض، إلا أنها المكـابرة علـى القـدر والمـرض اتقـاء لهزيمـة لحقـت الكثيـرين مـن قبلى.

منذ تكشف لي الأمر قررت ألا أيأس تماما وليحدث ما يحدث وسوف أعيش لآخر لحظة يمكننى فيها ذلـك. ربمـا هي أيضا جرأة اليائس والبائس والمتعوس وخائـب الرجـاء، تحديدا لست أدرى أيهم أنا..

كـل النسـاء فـي العنبـر مثلـى.. جالسـات أو راقـدات على أسرّة بيضـاء بيـاض موجـع والعيـون تسـتجدى لحظـة هدوء، وطفلة إحدى السنيدات قبيحة قبحا لا يليق بطفلـة تملأ المكان ضجيجا بصخب مائع، له نفس ميوعـة الطبيعـة التى تنحاز للأغنياء والأقوياء على حساب الفقراء والضعفاء والأنقياء.

المشهد فى إجماله يذكرنى بألف ليلة وليلة وعفريت المصباح الذي استرخى لزمن طويل في المصباح وعرائس البحـر الجمـيلات علـى الشـاطىء تجـدل الـوخم جـدائلا يمسدن بها وجه البحر. مشـهد نسـاء الثـدى الواحـد فـاق كل خيال..

نحــن جميعــا عــرائس بثــدى واحــد. بعــد الجلســة ستخرجه كل واحدة وتنفخ فيه من آلامها ثم تحوله لثعبـان ثـم نجـرى فـرادى وجماعـات فـى مظـاهرة مـن النســاء المشعات في اتجاه بيت أو فيللا أو قصر السـيد المسـئول الـذي مـلأ جيوبـه وخزائنـه بتـرف عمـولات أجنبيـة مرعبـة الأرقام ليملأ المدينة بنباتـات وخضـروات وفاكهـة مسـرطنة وهواء مسـموم وماء فاسـد ورجـال بائسـين بأفكـار فاسـدة ساهموا في قهرنا.. تسببت نفس الأطعمة ونفس الهـواء

ونفس الماء في اخصاء الرجال فى مقابل إزجاء عصبيتهم وعنتريتهم الفارغة..
لـم تغـف عينــي للحظـة، كنـا نجـرى نحـن النســاء المشعات إلى بيت أو فيللا أو قصر السيد المسئول وهناك وجدناه. تحايلنا على رجـال أمنـه وأمانـه الـواقفين يحمونـه بكل ما خف وثقل من سلاحتم دخلنا إليه.

كانت كل واحدة قد وجهت ثعبانها ولفتـه علـى رقبتـه وراحـت تعتصـر روحـه وممتلكاتـه ومقتنيـات قصـره واسـمه ولقبه ويومه وغده.

فـي آخـر اليـوم حـين رأينـا روحـه وقـد أزهقـت تمامـا وممتلكاته وقد تبـددت وقصـره وقـد تـداعى ومقتنياتـه وقـد تنـاثرت أشــلاء رحنـا نجـرى نحـن النســاء المشـعات فـى مظاهرة كبيرة تملأ شوارع المدينة لنرى أنفسنا فى مرايـا كثيرة وزجاج فاترينات المحلات نساء غير بائسات.

ـ تمت ـ

مدينة السادس من أكتوبر
مايو ٢٠٠٦

نعمات البحيرى فى سطور..

أديبة وروائية وقاصة مصرية

١. الاسم كاملا : نعمات محمد مرسى البحيرى
٢, اسم الشهرة : نعمات البحيرى
٣. ولدت بالقاهرة بحى العباسية البحرية فى ١٩٥٣/٦/١٦ثم عادت مع أمها لتعيش طفولتها المبكرة فى بيت جدها فى تل بنى تميم بشبين القناطر..قليوبية..
٤, تخرجت فى كلية التجارة عام ١٩٧٦جامعة عين شمس شعبة محاسبة..
٥. ظلت تعمل فى شركة للكهرباء كأخصائية للشئون الأدارية حتى مرضت بفعل عوامل قهر الوظيفة وعوامل أخرى فى أكتوبر ٢٠٠٤..لكنها ظلت تقاوم اعتلال الروح لتقدم رؤيتها للعالم كتابة وحياة..
٦. الكتابة بالنسبة لنعمات البحيرى هى بهجة مدفوعة الثمن من الوحدة والوحشة وتأجيل الأحلام ..

هى كلمة تتبادلها مع الناس حتى تظل معهم مثل خيول جامحة ترفض الانسياق لطرق ممهدة شكلا لكنها وعرة مسدودة..

الكتابة هى رئة أخرى لهواء نظيف.. هى خط الدفاع الأخير فى مقاومة الموات والانزواء والبأس والاحباط .

هى صرخات من القلب الموجوع بسياط الرغبة فى تغيير وجه وروح وعقل العالم عبر تجديد الأحلام وكسر القيود وتبديد الأوهام...

٧, نعمات البحيرى من جيل الثمانينات فى كتابة القصة القصيرة والرواية
٨. عضو اتحاد كتاب مصر....
٩, عضو آتيلييه الكتاب والفنانين.....
١٠, عضو نادي القصة بالقاهرة
١١. عضو جمعية الفيلم....

١٢. تكتب الأدب ليس لأنه رئة أخرى في مناخ اجتماعى وسياسى خانق لكن لأن هناك هموما وقضايا كثيرة تتنازعهاا أهمها قضية الديمقراطية وقضية العدل الاجتماعي وقضية الحرية وحقوق المرأة التى تنتهكها النساء قبل الرجال..

١٣, تكتب الأدب حبا وعشقا لمساندة الحياة ومساندة الحب والحرية ..

١٤. اكتشفت موهبتها فى كتابة القصة عبر صدفة مدهشة وكانت تكتب مقالات ذات طابع إجتماعى احتجاجا على أوضاع اجتماعية مجحفة بحق المرأة وبحق الإنسان..

١٥. احتفى بكتابتها العديد من النقاد الكبار مثل ابراهيم فتحى ومحمود عبد الوهاب وفريدة النقاش وصافيناز وفيصل دراج وكاظم وسناء فتح الله والدكتور سيد البحراوى ود.محمد الرميحى وعبد الرحمن ابو عوف والدكتور حامد أبو أحمد ود. فاطمة المحسن والدكتور أحمد الخميسى وطلعت الشايب ومن النقاد الشباب الدكتور مصطفى الضبع والدكتور مجدى توفيق والدكتور أيمن أبو بكر ووائل فاروق ومن الشعراء جمال القصاص وشعبان يوسف وعواد ناصر وحلمي سالم ومن القصاصين والروائيين محمد مستجاب وفؤاد قنديل وعبد الرحمن مجيد الربيعى وأفنان القاسم وذكى سالم وسيد الوكيل ومحمد الفارس وسناء صليحة وأميرة الطحاوى ...واحتفى بها فى الندوات واللقاءات التليفزيونية والاذاعية ادوارد الخراط وسامى خشبة ود.سيد البحراوى ود. منى طلبة وسامية الساعاتى ود.سوسن ناجى..ومن الباحثات الأ جنبيات كتبت عنها كارولين سيمور الامريكية وميرلين بوث الأمريكية وأديزونى ايلو الايطالية....

• ترجم لها العديد من القصص للإنجليزية وللفرنسية وللايطالية وللكردية..

•سافرت الى النمسا وسويسرا وألمانيا عبر وفود ثقافية وكتبت عن أسفارها ونشرت عنها فى الأهالى والعربى الكويتى والعربى الناصرى

• تزوجت من شاعر وناقد عراقى بعد قصة حب شهيرة وعاشت معه فى العراق فى نهاية الثمانينات..واستوحت تجربتها معه فى روايتها أشجار قليلة عند المنحنى الصادرة عن دار الهلال عام ٢٠٠٠

•كتبت الدراما التليفزيونية لقصتها القصيرة "نساء الصمت" وقامت بإنتاجها شركة صوت القاهرة للصوتيات والمرئيات وقامت يتمثيلها سمية الألفى مع محمود قابيل وعائشة الكيلانى وسلوى عثمان ونبيل هجرس..

•تكتب النقدى الفنى للاعمال التليفزيونية والسينمائية . كتبت عن افلام الموجة السينمائية الجديدة لمحمد خان وخيرى بشارة وداود عبد السيد ومجدى أحمد على وعن سينما البنات ورصدت المخرجات وكاتبات السيناريو الجدد بما يقدمنه من افلام جديدة ورؤى جديدة للحياة..مثل عزة شلبى وساندرا نشأت وهالة خليل ووسام سليمان ....

• صدر لها..المجموعات القصصية التالية..

١, "نصف امرأة" على نفقتها الخاصة عن دار الحرية عام ١٩٨٤..

٢. " العاشقون" مجموعة قصصية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٩..فى سلسلة اشراقات أدبية .....

٣, "إرتحالات اللؤلؤ" عن الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة عام ١٩٩٦..سلسلة أصوات أدبية...ثم صدرت فى مكتبة الاسرة ..

١٦. المجموعة القصصية "ضلع أعوج" عن الهيئة المصرية للكتاب عام ١٩٩٧ فى مختارات فصول ثم صدرت عن مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٣

ومن الروايات صدر لها عن دار الهلال رواية "أشجار قليلة عند المنحنى" فى ديسمبر ٢٠٠٠..

١٧, المجموعة القصصية "شاي القمر"عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠٥ مكتبة الأسرة...
١٨. صدر لها عن المجلس الأعلى للثقافة فى إبداعات التفرغ "حكايات المرأة الوحيدة" عام ٢٠٠٥...

وللأطفال صدر لنعمات البحيرى

١, "النار الطيبة" عن الهيئة المصرية للكتاب عام ١٩٨٨..
٢, و"الفتفوتة تغزو السماء " سيناريو وحوار عن سلسلة قطر الندى عن هيئة قصور الثقافة..
٣. وعن دار المعارف صدر للكاتبة وصية الأزهار وبالونة سحر ورسومات نيرمين..
٤, وعن الهيئة المصرية للكتاب " رحلة الأصدقاء الثلاثة"
٥, نشرت قصص وسيناريوهات الأطفال متفرقة بدوريات مصرية وعربية مثل علاء الدين وقطر الندى و العربى الصغير وماجد...
٦. شرت قصصها ومقالاتها فى أغلب المجلات والجرائد المصرية والعربية مثل الأهرام والحياة والشرق الاوسط والأخبار وأخبار الأدب والجمهورية والمساء ومجلة العربى الكويتى وأقلام العراقية ودبى الثقافية والصدى وكل الاسرة وحواء والهلال وغيرها ....

- حصلت على منحة قصر لافينى بسويسرا عن مؤسسة رولت فونداشن للفنانين ..أنهت فيها روايتها "أشجار قليلة عند المنحنى" التى صدرت عن دار الهلال فى عام ٢٠٠٠
- حصلت على منحة تفرغ لمدة ثلاث سنوات لكتابة ثلاث روايات وعدد من المجموعات القصصية منها حكايات

المــرأة الوحيــدة وارتحــالات اللؤلــؤ وأشــجار قليلــة عنــد المنحنى..

- ترجمت بعض قصصها إلى الانجليزية والفرنسـية والايطالية والكردية..
- تكتــب المقــال والنقــد الســينمائى والســيناريو وأدب الرحلات
- حين داهمها السرطان قادتها بوصلتها شـديدة الحساسية والرهافة إلى ردعه وتجاوزه عن طريق الهروب إلى الأمام وليس إلى الخلف، فاستنفرت سـلاحها الوحيـد "الإبداع" الفاتك بكل أعدائها وهم الظلـم والإحبـاط واليـأس والتخـاذل والخنـوع والاستسـلام، وتركـت العقـل ليمـارس حيلة من حيله النبيلة، يدفعها بهـا دفعـا إلـى خلـق حالـة من التوازن لكي تتقبل عن سـعة صـدر وأفـق، خبـرة الألـم المضافة إلى كم الخبـرات الإنسـانية التـي عاشـتها حتـى قبل أن تعرف الكتابة.. فراحت تـدون التجربـة فـى مراحلهـا القاسية كشكل من أشكال الدفاع..
- كتبت عن تجربتها أنهـا تـذكرت أن رحلـة حياتهـا ككاتبــة لا تــدعمها أيــة مؤسســة اجتماعيــة أو ثقافيــة أو إعلاميــة لــم تختلــف كثيــرا عــن نفــس الرحلــة.. والبشــر والمواقـف والأحـداث علـى المسـتوى العـام والخـاص مثـل فيروسات أو بكتريا، مثـل أمـراض ..أمـراض واضـحة وأخـرى كامنة.. أمراض حميدة وأخرى خبيثة.. شقاء يسـلمك إلـى شقاء.. وصخرة سيزيف التى تثقـل كاهلـك لتظـل تشـقى لترفعها إلى أعلـى ومـا أن تشـعر بأنـك حقـا أدركـت حافـة الجبـل تسـقط الصـخرة، لتنـزل وتبـدأ مـن جديـد. ، وأن مـا حدث لها هو جزء من المؤامرة الكبرى على عقول وأجساد البشر فى مجتمعات العالم.. جـزء ممـا يحـدث فـى الـدول الفقيرة، ليكون نصيب الفرد فادح الضآلة ..

احتفـى بكتابـة نعمـات البحيـرى العديـد مـن النقـاد والشعراء والقصاصين والروائيين من المصريين والعرب...

قال عنها الناقد ابراهيم فتحى

برعت نعمات البحيرى في تصوير الواقع الديكتاتورى فى روايتها" أشجار قليلة عند المنحنى التى تمس كل الجروح وتتحدث عن صحراء الروح بكل أشكالها وتكتب بطريقة حية جديدة محاولة تصوير الشخصية الانسانية ليس فى مصر فقط بل وفى العالم أيضا. فهذه رواية لا يمكن ان يكتبها رجل لأنها تتحدث عن القهر المزدوج الواقع على الرجل والمرأة معا، وهى تبدع فى تصوير هذا القهر فهى رواية نسائية بالمعنى الجديد للتسمية تتحدث عن الجسد وعلاقة الحب ولكن علاقة المرأة بجسديتها علاقة بالعالم وبالقهر الانسانى وليس جسدا بيولوجيا فهو جسد اجتماعى حضارى من خلال لغة تصويرية جميلة.

قالت عنها الناقدة فريدة النقاش

من عالم المتخيل من هذا العالم الغائب الحاضر منه كذاكرة يبليها الزمن ويحييها الابداع تأتى نعمات البحيرى الى الكتابة باعتبارها ضد الفناء خلودا وتبنى عالم نصها متخيلة له نظامه أى نسقه وتحاول به حوارا مع هذا المتخيل فيصبح عملا أدبيا يشدنا إليه بخيوط من المتعة والمعرفة والأسى. والكتابة عندها هى انتصار على الموت لأنها تنطوى على شوق للإفصاح عن مبهم أو عن مجهول، والكتابة هى توقنا لأن نولد أبدا فى اللغة ونبقى....

قال عنها الناقد الكبير محمود عبد الوهاب..

فى روايتها أشجار قليلة عند المنحنى صورت مشاهد عبر الكثير من التفاصيل التى تجسد للقارىء معالم المكان، معالم اللون والرائحة والصوت والملمس ومساحات النور والظلال والظلام، معالم تسربت إليها المشاعر المختلفة عبر ساعات اليقظة وآليات الحلم وتحول مساحات الرماد إلى جدارية تلخص بؤس مجتمع ينوء كاهله باستبداد السلطة الحاكمة..

كتبت عنها الناقدة صافيناز كاظم

نعمات البحيري كاتبة في مرحلة نضجها الفني، قرأت لها الكثير من قصصها القصيرة منشورة هنا وهناك جـذبني أسـلوبها الوصـفي التفصـيلي الـذي يتصـاعد مـن الخفـوت تدريجيا إلي الوهج. تمتلـىء بـه قصصـها بالمفارقـات التـي ترسـم الابتسـامة المتأملة للأسـطر المقـروءة. فـي روايتهـا "أشــجار قليلــة عنــد المنحنــى" تتصـرف بطلتهـا أشـجان المصري بتلقائية المصـرية التـي لا تحسـب حسـاب أجـواء التربص والمراقبة والهيمنة التي يشيعها نظام تلـك الـبلاد على شعبه فى سيطرة كابوسـية لا فكـاك منهـا وتلقائيـة الشـابة المصـرية نابعـة مـن خلـو ذهنهـا التـام لتصـورات الكيفية التي يمكن أن تسد بها النظم الديكتاتورية المنافـذ على النـاس فـي وطـأة شـديدة مـن كـتم الأنفـاس حتـى تزهق الروح تماما .

نجحت نعمات البحيرى فى التصوير التفصيلي المحتج لرحلة معاناة أشجان المصـري وهـى تكتشـف رويـدا رويـدا النفــق الرهيــب الــذي أوقعــت نفســها فيــه، وبحثهــا المسـتميت للخـروج والفـرار. أشـجان المصـرى هـو اسـم البطلة لكنه واقعة فى دفتر أحـوال هـذه الروايـة الانسـانية النبيلة والمؤلمة فى صدقها وأمانتهـا " أشـجار قليلـة عنـد المنحنى".

وكتب عنها الناقد الفلسطيني فيصل دراج

فـى روايتهـا "أشـجار قليلـة عنـد المنحنـى"، تتحـدث نعمـات البحيـري عـن قمـع متعـدّد الطبقـات، يلـفّ البشـر جميعـاً ويتـراءى شـفافاً فـي مـآل "المـرأة"، التـي يسـقط عليها عنف الذكورة وعنف متوارث له شـكل البداهـة. ربمـا يكون عمل نعمات البحيـري مـن الروايـات العربيـة القليلـة، التي نفذت الى جوهر النظام التسـلّطي، حيـث المتسـلّط الكلّـي، الـذي تنـوب عنـه صـوره الكثيـرة، يلـتهم كـل مـا خارجـه، موزّعـاً المجتمـع الـى فئتـين: فئـة أولـى تحاكيـه وتقلّده، كما لو كانت صورة من صوره، وفئة ترفض المحاكاة وتفترسها الصور وتنتهي الى الجحيم.

وفـى مقـال لـه بجريـدة الحيـاة اللندنيـة قـال الدكتور محمد الرميحى .....

اذا أراد القارىء أن يعرف كيف يعاني عربي مثلـه فـي مجتمـع قلـق تسـوده المخـاوف والآلام والإحباطـات فعليـه بقراءة رواية نعمات البحيري "أشجار قليلة عند المنحنى ". ففي هذه الروايـة ـ شـبه القصـيرة ـ مـا يغنـي عـن خطـب كثيرة وتفاصيل طويلة تضمها كتب التاريخ.

وقال عنها الدكتور حامد أبو احمد

اذا كان بعض النقاد العرب قـد رأى فـى قصـيدة نـازك الملائكة التفعيلية كسرا لعمود الفحولة فى الشعر العربى فأنى أرى أن نعمـات البحيـرى فـى ارتحـالات اللؤلـؤ أخـذت موقعا مهما فى قصيدة النثر العربية خاصـة اذا وضـعنا فـى الاعتبار ان هذا النـوع الشـعرى فـى أدبنـا مـازال الـى الآن يتخبط بين الرفض المطلق من جانب معارضيه وما اكثـرهم وبين النماذج الرديئة الشائهة من جانب أنصاره..

قال عنها الشاعر العراقى عواد ناصر

تحت عنوان "أشجار قليلة عند المنحنى روايـة عربيـة عن العراق لا تتملق أحدا.."

..هذه الرواية شهادة عربيـة خـارج مراسـيم السـيادة الرسـمية وبروتوكـولات العلاقـات الثنائيـة بـين البلـدين الشقيقين وقد كتبتها نعمات البحيرى بحس فنـى راق لـم تنكفـىء بـه فـي دهـاليز المـوت والغبـاء وانعـدام اللغـة الطبيعية بين الكائنات بـل منحتـه ألقـا خاصـا مـن الصـدق أملى بدوره تعبيرية وجدانية تمتلـك القابليـة علـى موازنـة العسف بالحميمية والقسوة بالشفاهية، الأمر الذي جعلنا نسـتمتع بروايـة جميلـة تـوفرت علـى عنصـري الإبـداع والتشويق رغم قسوة المادة الخام ووحشة المكـان حيـث يفتقد أهم ما يحيله إلى ركن قابل للحياة: الحب

تقدم نعمات البحيرى درسا عربيا فى صـورة التصـدى للأكذوبـة وفضـح تلـك الفاشـية العاديـة التـى تثقـل علـى صدور العراقيين ورقابهم وأصابعهم وتلك تيمـة رئيسـة مـن

تيمات الرواية ـ الشهادة التى قدمتها الروائية المخلصة لحقيقة نفسها ككاتبة قبل أية حقيقة أخرى وتضع الكاتب والقارىء العربى أمام مسئوليته ازاء ما يحدث لشعب شقيق..

كتب عنها الناقد يوسف أبو عوف

تؤكد نعمات البحيرى فى "ضلع أعوج "حضورها الساطع المكتمل والواعد فى نوع من حساسية الكتابة بدأت تتشكل وتتكون سماته وملامحه ومفردات ومضامينه وجمالياته فى السنوات القليلة الاخيرة تنهض بها المراة المصرية فى كبرياء وتواجه به كل ندوب الوهن والتآكل والتدنى لتخلف المجتمع الذكورى حيث تراتب القمع المراوغ الذى مازال يمارسه الرجل الشرقى ويستلب به حريات وانسانية واستقلالية المرأة..

وفى أطروحته النقدية "كتابة الحرية والتناغم" كتب **الدكتور مجدى توفيق ..**

قصص نعمات البحيرى تمتاز بالتدفق السردى البسيط الذى حررته الساردة من تقاليد القص القديمة وحررته كذلك من الاقتران برسالة واضحة محددة تنتظم حولها الأحداث ولكنه وفى الوقت نفسه يظل يحمل امكانية تأويلية مهمة تضرب به فى المستوى التحتى للتأويل، فى علاقة الراوية بالعالم حولها، موقفها من الجماعة، جروحها الذاتية وعيها بالوضع السياسى القائم وهى علاقة تتفتح دوما على موقف انسانى متكرر، تؤسس فيه الذات بهجتها وتآلفها فى عالمها المحدود ولا تسمح للعالم الواسع حولا أن يضر بعالمها الخاص وأن يفسد بهجته التخيلية..

كتب عنها د. مصطفى الضبع

كانت المجموعة القصصية "نصف امرأة" التى وضعتها نعمات البحيرى أمامنا عام ١٩٨٤، ظننا حينها أنها ما قدمتها سوى لتشير إلى نساء مشوهات ، ولما لم نفهم الرسالة التى كان يكفى خمس سنوات لاستيعابها فكان " العاشقون" (١٩٨٩) كاشفين وجها آخر للقضية ،

ومحاولين على مدى سبع سنوات أن يصححوا كثيرا من مفاهيم العالم ، ثم انتهى الأمر بإغرائنا بـ "ارتحالات اللؤلؤ" ١٩٩٦ ، ولكن الإغراء لم يكن كافيا لعالم أشرف على خسارة وعيه فكانت صرخة " ضلع أعوج " محاولة أن تهمس فى أذهاننا بسؤالها الحاسم : من المسئول عن اعوجاج العالم ، ومن يتحمل مسئولية التقويم ؟ ولما كان على الكاتبة أن توسع من دائرة النداء متجاوزة قضايا يمكن أن تحيل إلى المحلية ، ولأن مقدرات عجزنا ألقت بنا فى العراء متدثرين بالهجير فقد سعت أشجان إلى أن تكشف عن رمزية أشجارها القليلة عند المنحى الخطر ، هاهنا وصلنا معها لدرجة من الوعى سمحت لنا أن نجلس مع شخصياتها متذوقين " شاى القمر" الذى استحقته موهبتها ، وأصبحنا جديرين به وقد امتلكنا قدرا من وعيها القادر على الإنجاز والكشف ، هكذا تتحرك نعمات البحيرى صانعة ثوابتها الراسخة عبر إنتاج نص متميز يليق بموهبتها ،و منجزة علاماتها الخاصة ، ومؤثرة فى كل من يعرف الطريق إلى روحها الأكثر جمالا .

قال عنها الشاعر شعبان يوسف

"قليلون هم الذين أخلصوا لفن القصة القصيرة مثلما أخلصت له الكاتبة المصرية نعمات البحيري.. تمزج في القصص الهم الخاص بالهم العام، في سبيكة واحدة.تبحث طوال الوقت عن ثغرات مفتوحة دوماً للمقاومة وانتاج المعنى النبيل في هذه الحياة، على رغم كل ما يطارد الكائن الانساني من كوارث لا ذنب له فيها، وكأن قوى غامضة استدرجته الى هذه الحياة كي تسحقه بلا رحمة ولا يجد الانسان إلا أن يقاوم ويقاوم."

وان الملمح الواضح في أغلب قصصها هو أن الحاضر ليس شرطاً أن يكون نتيجة مفروغاً من أمرها لحياة الماضي، فالماضي يمكن التمرد عليه، ويمكن الخروج من أسره، ويمكن كسر قيوده لصناعة حاضر ومستقبل أجمل وأرق وأكثر انسانية.

قال عنها القاص والروائى سيد الوكيل

لفتت نعمات البحيرى الانتباه بطاقة مدهشة من السرد الشعرى المفعم بروح أنثوية جديدة بتفهم عميق للواقع، ودرجة مدهشة من صفاء اللغة، وألق الروح الأنثوية الخلاقة.

الكتابة عندها بديلً عن الموت، عندما جعلت من سيرتها الذاتية أفقاً للسرد...نعمات لديها روح نضالية صلبة، تكتب وهى على أسرة المرض، وبين أروقة المستشفيات، وتحت مشارط الجراحين، وتهدى لنفسها مجموعهتا الأخيرة (شاي القمر) لتنفض عن نفسها غبار الأيام والمرض. وشاي القمر .. مجموعة جديرة بالقراءة، لأن لا شيء يعوض المتعة التى يجدها القارئ فى لغتها الشعرية الجميلة، وعالمها الفضفاض، وهى تتكلم أكثر مما تكتب، وتبوح أ كثر مما تؤلف، عن الحياة الصعبة، والأيام، والنساء اللاتى لا يعدمن سبيلا ً للعيش، ويتحايلن على الحياة، ليعشنها بألف وجه وألف ذراع مادامت لهن أرواح حية محتشدة بالحياة وكلهن يشبهن نعمات البحيري، لا لشيء سوى لأنها عمدتهن بروحها، فتراهن نساء حقيقيات، منكسرات أحيانا ،وشرسات فى أحيان أخرى..